منهج المستشرق ستيفين هامفريز في كتابه:
(معاوية بن أبي سفيان من الجزيرة العربية إلى الإمبراطورية)
"عرض ونقد"

د. أروى بنت محمد بن علي العقلا

أستاذ الثقافة الإسلامية المشارك، بكلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى

a-roooora@hotmail.com

المستخلص: تناول هذا البحث منهج المستشرق ستيفين هامفريز في كتابه: معاوية بن أبي سفيان من الجزيرة العربية إلى الإمبراطورية؛ ويهدف إلى دراسة منهجه وتحليل آرائه ونقدها، واستخدمت الباحثة فيه المنهج الاستقرائي التحليلي والمنهج النقدي، وتوصلت إلى نتائج البحث، والتي من أبرزها: أسقط هامفريز تصورات أيديولوجية معاصرة على معاوية ﷺ، واعتبره خارج الشرعية، متجاهلًا مكانته كصحابي وخليفة، ووصف حكمه كانعطاف نحو نموذج إمبراطوري، متجاهلًا أبعاد السياسة الشرعية في شرعية الحكم. كما أنصف هامفريز معاوية في جانب الفتوحات، لكنه لم يخلُ من اللمز، كالتقليل من قدرته القتالية المباشرة، وتعامل معه وكأنه في محكمة متأخرة، متجاهلًا أصول النظر إلى الصحابة وفق سياقهم التاريخي. اتسم منهج هامفريز بالتكرار والتشكيك، والانحياز لروايات الخصوم، وإيراد قصص مشكوك فيها، وانتقى مصادره بعناية، مع اعتماد واضح على البلاذري في الأنساب والطبري في التاريخ، لتقوية موقفه النقدي. كما افتقر كتاب هامفريز للترابط البنائي، وقدّم معلومات غير جديدة، مما جعله أقرب للرؤية الشخصية.، حيث اعتمد قراءة انتقائية للتاريخ، أغفلت السياق الزمني وتطور المفاهيم، وانحازت لروايات مذهبية متأخرة. وأوصت الباحثة المهتمين بالفكر الإسلامي والدراسات الاستشراقية؛ بأهمية دراسة ونقد كتابات المستشرقين التي تناولت الأشخاص والمواقف والأحداث التاريخية المتعددة في حياة المسلمين.

كلمات مفتاحية: منهج، المستشرق، الكتاب، معاوية، النقد.

The Methodology of Orientalist Stephen Humphreys in His Book: "Mu'awiya ibn Abi Sufyan: From Arabia to Empire"

Presentation and Critique

Dr. Arwa bint Muhammad Al-uqla

Associate Professor, Department of Da`wah and Islamic Culture, College of Da`wah and Fundamentals of Religion Umm Al Qura University

a-roooora@hotmail.com

Abstract: This research examines the approach of Orientalist Stephen Humphreys in his book "Muawiyah ibn Abi Sufyan: From Arabia to Empire." It aims to study his methodology, analyze his views, and critique them. The researcher employed the inductive analytical method and critical approach. The study reached several conclusions, most notably:

Humphreys projected contemporary ideological conceptions onto Muawiyah, considering him outside the realm of legitimacy despite his status as a companion and caliph. Humphreys described Muawiyah's rule as a shift towards an imperial model, disregarding the dimensions of legitimate governance. While Humphreys acknowledged Muawiyah's conquests, his account was not without subtle criticism, such as downplaying Muawiyah's direct military capabilities. Humphreys treated Muawiyah as if he were on trial based on late historical sources, ignoring the principles of understanding companions within their historical context.

Humphreys' methodology was characterized by repetition, skepticism, bias towards the narratives of opponents, and the inclusion of questionable stories. He carefully selected his sources, relying heavily on al-Baladhuri for genealogy and al-Tabari for history to strengthen his critical stance. However, Humphreys' book lacked structural coherence and presented information that was not novel, making it more akin to a personal perspective than a scholarly work. Humphreys adopted a selective reading of history that overlooked chronological context and the development of concepts, favoring late sectarian narratives.

The researcher recommends that scholars interested in Islamic thought and Oriental studies pay attention to the importance of studying and critiquing the writings of Orientalists on various historical figures, events, and situations in Muslim history.

Keywords: methodology, Orientalist, book, Muawiyah, critique.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين، والصلاة والسلام على الرسول الأمين المبعوث رحمةً للعالمين عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [آل عمران: ١٠٢]، أما بعد:

فإن قضية اهتمام المستشرقين بتاريخ البلاد العربية والإسلامية ودراساتهم المتعلقة بها في مختلف الجوانب، تعدُّ من الموضوعات الحيوية والمعقدة التي تتطلب توضيحًا وتحليلًا دقيقًا. ففي حين اعتمد بعض المثقفين على أبحاث المستشرقين ورؤاهم، مستندين إلى منظور علمي محض، يظل الشك قائمًا حول دوافع هؤلاء المستشرقين وخلفياتهم. ولقد أنتج المستشرقون كمًا هائلًا من الأبحاث والدراسات حول الثقافة العربية والإسلامية، منطلقين من أهداف وخلفيات شتى.

ونظرًا لتنوع المستشرقين وتباين توجهاتهم، يتعين دراسة أعمالهم وآرائهم على أساس فردي، مع التركيز على مناهجهم وخلفياتهم الفكرية، وتزايد الدراسات والأبحاث العربية والإسلامية التي ترد على الاستشراق والمستشرقين، وتكشف عن مناهجهم وأساليبهم المشبوهة، ومزاعمهم المتحاملة، وتفضح افتراءاتهم على الإسلام، يكاد يغيب أي أثر إيجابي للاستشراق والمستشرقين في جهودهم البحثية، خاصة فيما يتعلق بمنهجهم العلمي.

ويُعدُّ كتاب "معاوية بن أبي سفيان من الجزيرة العربية إلى الإمبراطورية"، للمستشرق والباحث الأمريكي ر. ستيفين هامفريز واحدًا من الأعمال المهمة في مجال دراسة التراث الإسلامي. ويأتي هذا البحث ليلقي الضوء على منهج هذا المستشرق في عرض آرائه حول هذه الشخصية التاريخية المهمة، حيث تحاول هذه الدراسة أن تقف بحياد علمي على طبيعة التناول من خلال منطلقات ومحاور تكشف عن ملامح هذا التناول ومنهجه، ومدى تحقيقه لجوانب هذه الشخصية، ومساعيها لتولي دولة الخلافة.

وقد رأت الباحثة الكتابة في هذا الموضوع وفق العنوان الآتي: **(منهج المستشرق ستيفين هامفريز في كتابه: معاوية بن أبي سفيان من الجزيرة العربية إلى الإمبراطورية: عرض ونقد)**.

مشكلة البحث وتساؤلاته:

لقد غلب على الكتابات الاستشراقية انحراف واسع في المنهج العلمي والبحثي لدى معظم المستشرقين؛ مما أدى إلى تقديم دراسات خاطئة وآراء متحيزة، ومطاعن عديدة ضد الإسلام والمسلمين، وتاريخهم، وحضارتهم. ومع ذلك وسط هذا الزخم من الانتقادات غير الموضوعية، ظهر فريق من المستشرقين الذين اتبعوا نهجًا علميًا معتدلًا في البحث والدراسة والكتابة، وقدموا آراء أكثر توازنًا. وبين هذا وذاك يتحدد منهج المستشرق ستيفن هامفريز في كتابه عن معاوية الذي يسعى هذا البحث إلى دراسته.

وتتمحور مشكلة هذا البحث في إثارة التساؤل الرئيس الآتي: **ما منهج المستشرق ستيفين هامفريز في كتابه (معاوية بن أبي سفيان من الجزيرة العربية إلى الإمبراطورية)؟** وتتفرع عنه التساؤلات الآتية:

١. ما خلفية دراسة المستشرقين للتاريخ والتراث الإسلامي؟
٢. ما أبرز آراء المستشرق ستيفن هامفريز في كتابه عن معاوية ﷺ؟
٣. ما منهج المستشرق ستيفين هامفريز في عرض آرائه في كتابه عن معاوية ﷺ؟
٤. كيف يمكن تحليل ونقد منهج وآراء المستشرق ستيفين هامفريز في كتابه عن معاوية ﷺ؟

أهمية موضوع البحث:

وتتضح في الآتي:

١. الكشف عن المنهجية التي يعتمدها أحد أبرز المستشرقين المعاصرين في دراسة التاريخ الإسلامي المبكر.
٢. بيان أثر الخلفية الفكرية والاستشراقية على تفسير الأحداث المتعلقة بمعاوية رضي الله عنه والدولة الأموية.
٣. إبراز مدى التزام هامفريز بالمعايير العلمية في نقد المصادر الإسلامية واستخدام الروايات التاريخية.
٤. الرد العلمي على بعض الانحرافات المنهجية أو القراءات المتحيزة التي قد تتضمنها الدراسة.
٥. إغناء المكتبة العربية بدراسة تحليلية نقدية لنص استشراقي مؤثر في الدوائر الأكاديمية الغربية.
٦. تقديم نموذج تطبيقي لدراسة مناهج المستشرقين يساعد الباحثين في فهم أدواتهم وتوجهاتهم البحثية.

أسباب اختيار البحث: تتمثل في الآتي:

١. أهمية شخصية معاوية رضي الله عنه وكونها من أكثر الشخصيات التي نالت اهتمامًا استشراقيًا غير موضوعي أحيانًا.

٢. تأثير كتاب هامفريز في الدراسات الغربية وحاجة الأكاديمية العربية إلى دراسة نقدية موازنة له.

٣. ندرة الدراسات العربية التي تناولت منهج ستيفين هامفريز مقارنة بغيره من المستشرقين.

٤. مناسبة موضوع الكتاب للدراسة المنهجية؛ لكونه يجمع بين التحليل السياسي والتاريخي والفكري.

٥. ارتباط الموضوع بمجال التخصص والاهتمام العلمي للباحثة مما يسهل المعالجة العميقة والمتقنة.

أهداف البحث:

يرمي البحث إلى:

١. تقديم إلمامة موجزة عن خلفية دراسة المستشرقين للتراث الإسلامي.

٢. عرض أبرز آراء المستشرق ستيفن هامفريز في كتابه عن معاوية ﷺ.

٣. دراسة منهج المستشرق ستيفن هامفريز في عرض آرائه في كتابه عن معاوية ﷺ.

٤. تحليل ونقد منهج المستشرق ستيفن هامفريز وآرائه في كتابه عن معاوية ﷺ.

الدراسات السابقة:

الدراسات حول الاستشراق وخلفياته ودوافعه لا يأتي عليها الحصر، وما يهمنا هنا هو ما يتعلق بالمستشرق ستيفن هامفريز، وقد وجدت الباحثة مقالًا واحدًا فقط حوله؛ تحت عنوان: **تشويه الدولة الأموية ومرافعة الباحث الأمريكي ستيفن عنها**، محمد بن عبد الله السلومي، مجلة رواء، العدد (٢٤)، يناير، ٢٠٢٤م، تضمنت رصد المؤثرات التاريخية والفكرية والعقدية التي تقف خلف الإساءة للدولة الأموية ولمؤسسها معاوية بن أبي سفيان ﷺ، مع تتبع الاعتبارات التي بنى على وفقها بعض المعاصرين كتاباتهم عن معاوية بالذات، مما استفز المؤرخ والباحث الأمريكي ستيفن هامفريز، فكتب عن الدولة الأموية وإيجابياتها وأفضالها على أمة الإسلام، من خلال مؤسسها.

ويؤكد الباحث على أن الكتاب ربما يُعدُّ مدافعة علمية عن معاوية والدولة الأموية، إلا أنه لم يخلُ من أخطاء علمية وإسقاطات متعددة، وهو الأمر المعتاد في كتابات المستشرقين.

منهج البحث:

المنهج الاستقرائي التحليلي: وهو المنهج الأنسب لطبيعة البحث، ويقوم على استقراء وتحليل ظاهرة علمية أو مسألة منهجية أو غير ذلك؛ للوصول إلى العوامل التي تتحكم في مسارها، واستخلاص النتائج المترتبة عليها. وقد استخدمتُ هذا المنهج في استقراء وتحليل منهج وآراء المستشرق ستيفن هامفريز في كتابه عن معاوية ﷺ.

المنهج النقدي: وهو المنهج الذي يعمد إلى التمييز بين الصحيح المقبول والخاطئ المرفوض من الموضوع المعروض للدراسة، مع تعزيز ذلك بالأدلة والشواهد المعتبرة، بغية التقويم المنهجي، والخلوص إلى بعض الآراء المعتبرة. ومن خلال هذا المنهج؛ تقوم الباحثة بنقد منهج المستشرق ستيفن هامفريز في كتابه عن معاوية معاوية ﷺ.

تقسيمات خطة البحث:

مقدمة.

تمهيد: التعريف بمصطلحات البحث.

المبحث الأول: دراسة المستشرقين للتراث والتاريخ الإسلامي، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: عناية المستشرقين بتاريخ الإسلام وحضارته.

المطلب الثاني: مدى التزام المستشرقين بمنهجية البحث العلمي في دراسة الإسلام وحضارته.

المبحث الثاني: عرض آراء المستشرق ستيفن هامفريز عن معاوية ﷺ، وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: آراء المستشرق ستيفن هامفريز في نشأة معاوية وعشيرته.

المطلب الثاني: آراء المستشرق ستيفن هامفريز في التكوين الديني لمعاوية ﷺ

المطلب الثالث: آراء المستشرق ستيفن هامفريز في فتوحات معاوية ﷺ وقتاله.

المطلب الرابع: آراء المستشرق ستيفن هامفريز في كونه سياسيًا وأميرًا.

المبحث الثالث: منهج المستشرق ستيفن هامفريز في عرض آرائه حول معاوية ﷺ، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: منهج المستشرق ستيفن هامفريز في تقسيم كتابه.

المطلب الثاني: منهجه العلمي في عرض آرائه حول معاوية ﷺ.

المبحث الرابع: تحليل ونقد منهج المستشرق ستيفن هامفريز وآرائه حول معاوية ﷺ، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: تحليل منهج المستشرق ستيفن هامفريز وآرائه.

المطلب الثاني: نقد منهج المستشرق ستيفن هامفريز وآرائه.

خاتمة: تشتمل على: نتائج البحث والتوصيات.

قائمة المصادر والمراجع.

تمهيد

التعريف بمصطلحات البحث

أولًا: تعريف المنهج:

المنهج لغة: يدور حول معنى الطريق، يقول ابن فارس: "نهج: النون والهاء والجيم أصلان متباينان: الأول: النهج، الطريق ... والآخر: الانقطاع"(١).

والمقصود هنا هو المنهج بالمعنى الأول، وهو الدالُّ على الطريق. فالمَنْهَجُ والمِنْهَاج: الطريق الواضح البيِّن. يقال: أَنْهَجَ الطَّرِيقُ: أصبح واضحًا واستبان(٢). والمنهاج: الذي يدل على الطريق القويم الواضح(٣).وقيل هو: "طريقة يصل بها الإنسان إلى حقيقةٍ أو معرفةٍ ما"(٤).

ومن الناحية الفلسفية؛ فالمنهج هو: "خطة منظمة لعدة عمليات ذهنية أو حسيَّة؛ بغية الوصول إلى كشف حقيقة أو البرهنة عليها"(٥).

وإجمالًا فإنه عبارة عن منْظومة متكاملة ومتناسقة على هيئة مجموعة من المبادئ سواء أكانت نظرية أم إجراءات تطبيقية يُهدف من خلالها تنظيم حقل معرفي معين بهدف تفعيل نتائجه مستقبلًا(٦).

ونسب بعضهم المنهج إلى ما يعرف بالمنهجية باعتبار أن المنهجية تطبيقٌ للمنهج، والتي هي: "علم يعتني بالبحث في أيسر الطرق، للوصول إلى المعلومة مع توفير الوقت والجهد، وتفيد كذلك معنى ترتيب المادة المعرفية وتبويبها وفق أحكام مضبوطة"(٧).

---

(١) أحمد بن فارس بن زكريا القزويني، مقاييس اللغة، (٣٦١/٥).
(٢) إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح = تاج اللغة وصحاح العربية، (٣٤٦/١).
(٣) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، (ص٦٠).
(٤) علي جواد الطاهر، منهج البحث الأدبي، (ص١٩).
(٥) مجمع اللغة العربية- بيروت، المعجم الفلسفي، (ص١٩٥).
(٦) ينظر: عبد الخالق رشيد، مناهج التحليل اللغوي، (ص٣).
(٧) محمد البدوي، المنهجية في البحوث والدراسات الأدبية، (ص٩).

وإذا كان المنهج يختص بالطرائق أو الإجراءات التي يتم اتباعها في عملية البحث عن المعرفة، فإن المنهجية تعني العلم الذي يدرسها.(٨)

أما التعريف الإجرائي لعنوان البحث فيمكن القول بأنها: القواعد والأسس المنهجية التي سار على وفقها المستشرق ستيفن هامفريز في كتابه: (معاوية بن أبي سفيان من الجزيرة العربية إلى الإمبراطورية)، وتقييمه والمآخذ عليه.

ثانيًا: تعريف المستشرق:

ظهر أول استعمال لكلمة مستشرق سنة ١٦٣٠م، حينما أطلق أحد أعضاء الكنيسة الشرقية على صمويل كلارك Samuel Clarke(٩) بأنه (استشراقي نابه) حينما أتقنَ بعض اللغات الشرقية، وفي عام ١٧٧٩م دخلت هذه الكلمة إلى القاموس الإنجليزي، ثم دخلت معجم الأكاديمية الفرنسية عام ١٨٣٨م(١٠).

بينما يربط بعضهم المستشرق بإتقانه للغات الشرق وآدابه، وفق تعريف قاموس أكسفورد، لأن أغلب المستشرقين أتقنوا اللغات الشرقية، وهو التعريف الذي اختاره المستشرق الإنجليزي (آربري)(١١) بأن المستشرق هو: "من تبحّر في لغات الشرق وآدابه"(١٢).

وبعضهم يطلق وصف باحث بدلًا من مستشرق، حيث يحبذ ذلك بعض الباحثين والمفكرين الغربيين المعاصرين، إذ يرون أن المستشرق، هو "ذلك الباحث الذي يحاول دراسة الشرق وتفهمه، ولن يتأتى له الوصول إلى نتائج سليمة في هذا المضمار ما لم يتقن لغات الشرق"(١٣).

---

(٨) يُنظَر: فتحي حسن ملكاوي، منهجية التكامل المعرفي: مقدِّمات في المنهجية الإسلامية، (ص٧٠- ٧١).

(٩) مستشرق إنجليزي ولد سنة ١٦٢٥م، درس في جامعة أكسفورد، ثم عين مديرًا لمطبعتها، من أهم أعماله معجم الأماكن ذات الأسماء العربية، توفي عام ١٦٦٩م، ينظر: المستشرقون، نجيب العقيقي، (٤٦٦/٢).

(١٠) محمد فتح الله الزيادي، الاستشراق أهدافه ووسائله، مؤسسة المعاصرة ومستقبل الثقافة، (ص٢٠).

(١١) آربري: (١٩٠٥م- ١٩٦٩م)، مستشرق إنجليزي، برز في التصوف الإسلامي والأدب الفارسي، درس اللغة العربية علي يد أستاذه رينولد الن نيلكسون ١٩٨٢٧م، فأثّر فيه تأثيرًا كبيرًا. ينظر: عبد الرحمن البدوي، موسوعة المستشرقين، (ص٧).

(١٢) لا. ج. آربري، "المستشرقون البريطانيون". تعريب: محمد الدسوقي، (ص٨).

(١٣) ألبرت ديتريش، "الدراسات العربية في ألمانيا، (ص٧).

والباحث المستشرق ملمٌ بكثيرٍ من العلوم المتعلقة بالشرق مما جعله يعد كذلك، فالمستشرق المعاصر يسمى اليوم باحثًا في الشؤون الإسلامية، أو خبيرًا في شؤون الشرق الأوسط، وصارت لمراكز ومعاهد ومؤسسات الاستشراق وفق ذلك مسميات أخرى أقرب إلى صورة البحث العلمي.

ولفظ المستشرق يطلق تحديدًا على علماء الغرب وقصرًا عليهم، حيث إنه: عالمٌ غربيٌ يهتم بالدراسات الشرقية على الإطلاق، ويجب أن يكون عالمًا متخصصًا غربيًا أصلًا أو انتماء، وأن تتعلق دراسته التي يقوم بها بالشرق، سواء كانت فلسفة، أو اقتصادًا، أو حضارة، أو آدابًا، أو آثارًا، ولكن ليس من الضروري أن يذهب إلى الشرق أو أن يعتنق أحد أديانه أو أن يتحدث بإحدى لغاته، وإن كان إلمامه بها يساعده في أبحاثه ودراساته(١٤). والأمر كذلك عمليًا، فجل المستشرقين -باستثناءاتٍ محدودة- مع من ينتسبون للدول الغربية الأوروبية، ومعها أمريكا وروسيا كذلك.

أمّا المحققون فقد استعملوا كلمة (علماء المشرقيات)، وغلب استعمال كلمة استشراق في العالم العربي رغم أنها بدأت تختفي من الدول الغربية منذ مطلع النصف الثاني من القرن العشرين، واسْتُعيض عنها بكلمة (خبير الشرق الأوسط)(١٥).

ومع انتشار مسمى (مستشرق) على مستوى العالم؛ إلا أن الكثير ممن أُطلق عليه هذا المسمى لا يرغبون أن يقال عنهم أنهم مستشرقون، ويحبذون أن يقال عنهم أي شيء سوى ذلك؛ لما اكتسب من مفهوم سيئ سلبي لدى العرب والمسلمين والمستشرقين أنفسهم، فقد نُبِذَ هذا المصطلح عند كثير من المستشرقين الغربيين الذين يرفضون أن يوصفوا به، ويفضلون أن يوصفوا بأوصاف أخرى؛ كخبير أو عالم أو غير ذلك من الأوصاف بدلًا من مستشرق، لأنهم يعللون أن شخصية المستشرق أصبحت مشؤومة في الوطن العربي(١٦).

(١٤) ينظر: أحمد سمايلوفتش، فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، (ص٣١).

(١٥) ينظر: محمد فتح الله الزيادي: الاستشراق أهدافه ووسائله، (ص١٩)؛ عمر بن إبراهيم رضوان: آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره، (٢١/١).

(١٦) ينظر: علي بن إبراهيم النملة، الالتفاف على الاستشراق محاولة التنصل من المصطلح، (ص٣٦).

وللكتاب والمفكرين العرب والمسلمين رأيٌ آخر في تعريف الاستشراق: فيقول إدوارد سعيد: فالمستشرق: كلُّ مَنْ يعمل بالتدريس أو الكتابة أو إجراء البحوث في موضوعات خاصة بالشرق، سواءٌ كان ذلك في مجال الأنثروبولوجيا – أي علم الإنسان– أو علم الاجتماع، أو التاريخ، أو فقه اللغة، سواءٌ كان ذلك يتصلُ بجوانب الشرق العامة أم الخاصة(١٧). وعمل المستشرق ينبثق عن الاستشراق بمفهومة الواسع، حيث "أُطلق على الدراسة التي تعني بالعالم الشرقي مصطلح الاستشراق، وأطلق على الغربيين الذين يقومون بتلك الدراسة بالمستشرقين"(١٨).

ثالثًا: التعريف بالمستشرق ر. ستيفن هامفريز:

ر. ستيفن هامفريز هو مؤرخ أمريكي متخصص في التاريخ الإسلامي، وأستاذ في جامعة كاليفورنيا. وُلد في ١١ أغسطس ١٩٤٢م، وحصل هامفريز على درجة الدكتوراه من جامعة ميشيغان عام ١٩٦٩، وهو الآن أستاذ فخري في تلك المؤسسة. وحصل هامفريز على دعم من عدة جهات، مثل: المركز الأمريكي للأبحاث الشرقية في عمان، وزمالة رئيس جامعة كاليفورنيا في العلوم الإنسانية. وهامفريز معروف بكتاباته عن التاريخ الإسلامي، خاصة عن فترة الخلافة الإسلامية الأولى.

أعمال ستيفن هامفريز:

- كتاب: من صلاح الدين إلى المغول: كتاب يتناول تاريخ الدولة الأيوبية (١٩٧٧).
- كتاب: بين الذاكرة والرغبة: الشرق الأوسط في عصر مضطرب: كتاب يتناول تاريخ الشرق الأوسط في العصر الحديث (١٩٩٩).
- تاريخ الطبري: أزمة الخلافة الإسلامية المبكرة.
- كتاب "معاوية بن أبي سفيان: من الجزيرة العربية إلى الإمبراطورية"، الذي يعتبر من أهم المراجع عن هذه الفترة التاريخية. (٢٠٠٦)، ترجمه عن الإنجليزية: هشام شامية، الناشر: المركز الأكاديمي للأبحاث، بيروت، العرق، تورنتو – كندا، ٢٠٢٢م، وتقع الكتاب في ٢٠٧ صفحات في الترجمة العربية.

(١٧) ينظر: النملة، الالتفاف على الاستشراق محاولة التنصل من المصطلح، (ص٤٤-٤٦).
(١٨) محمد حمدي زقزوق، الاستشراق الخلفية الفكرية للصراع الحضاري، (ص١٨).

– له عدة مقالات في المجلات الأكاديمية: هامفريز حيث نشر العديد من المقالات في مجلات أكاديمية محكمة، مثل: مجلة الدراسات الإسلامية، ومجلة التاريخ الإسلامي(١٩). وله مجموعة من الإنجازات، والمؤلفات الأخرى(٢٠).

رابعًا: التعريف بالخليفة معاوية بن أبي سفيان ﷺ:

هو الصحابي الجليل، أمير المؤمنين، أبو عبد الرحمن؛ معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أميَّة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قُصيّ بن كلاب، القُرشي الأموي(٢١). قال ابن كثير: "وكان أبوه من سادات قريش في الجاهلية، وتفرد فيهم بالسؤدد بعد يوم بدر، ثم لما أسلم حسن بعد ذلك إسلامه، وكان له مواقف شريفة، وآثار محمودة في يوم اليرموك، وما قبله وما بعده"(٢٢). واختُلِف في تحديد وقت إسلامه على أقوال؛ أصحها أنَّه أسلم عام فتح مكة، قال النووي: "أسلم – يعني معاوية ﷺ – يوم الفتح، سنة ثمانٍ، هذا هو الصحيح المشهور"(٢٣). وكانت وفاته ﷺ في شهر رجب سنة ٦٠هـ في دمشق عن ٨٠ عاما وقيل ٧٨(٢٤).

وكان معاوية ﷺ من كتَّاب الوحي؛ قال شيخُ الإسلام ابن تيْميَّة ¬: "فإنَّ معاويةَ ثبت بالتواتر أنه أَمَره النبي ﷺ كما أمر غيره، وجاهد معه، وكان أمينًا عنده يكتب له الوحي، وما اتَّهمه النبيُّ ﷺ في كتابة الوحي(٢٥).

وأما بالنسبة لما دار من الخلاف بين علي ومعاوية ﷺ فقد كان باجتهاد من كل منهما، ويكيفنا قول شيخ الإسلام، حيث يقول: "ومعاوية لم يدّعِ الخلافة؛ ولم يبايع له بها حين قاتل عليا، ولم يقاتل على أنه خليفة، ولا أنه

(١٩) ينظر: قواعد البيانات الأكاديمية: JSTOR وGoogle Scholar وResearchGate. ومكتبة جامعة كاليفورنيا، حيث يعمل هامفريز أستاذًا، ومواقع المؤسسات الأكاديمية: مثل موقع جامعة كاليفورنيا وموقع المركز الأمريكي للأبحاث الشرقية، وموسوعة ويكيبيديا.

(٢٠) المركز الأكاديمي للأبحاث، بغداد، موقع المركز الإلكتروني: www.acadcr.com

(٢١) ينظر: محمد بن سعد بن منيع، الطبقات الكبرى، (١٥/٦).

(٢٢) أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، البداية والنهاية، (٣٩٧/١١).

(٢٣) أبو زكريا محيي الدين يحي بن شرف النووي، شرح النووي على صحيح مسلم، (٢٣١/٨).

(٢٤) ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، أحداث سنة ٦٠هـ، (٨/ ١٢٩– ١٣٠)؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، (٥/ ١٣١)

(٢٥) أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، الفتاوى الكبرى، (٤٧٢/٤).

يستحق الخلافة، ويقرون له بذلك، وقد كان معاوية ﷺ يقر بذلك لمن سأله عنه، ولا كان معاوية وأصحابه يرون أن يَبْتدِئُوا عليًا وأصحابه بالقتال، ولا يعلوا. بل لما رأى علي ﷺ وأصحابه أنه يجب عليهم طاعته ومبايعته، إذ لا يكون للمسلمين إلا خليفة واحد، وأنهم خارجون عن طاعته يمتنعون عن هذا الواجب، وهم أهل شوكة رأى أن يقاتلهم حتى يؤدوا هذا الواجب، فتحصل الطاعة والجماعة"(٢٦).

(٢٦) المرجع السابق، (٣/٤٥٥).

المبحث الأول

دراسة المستشرقين للتراث والتاريخ الإسلامي

المطلب الأول: عناية المستشرقين بتاريخ الإسلام وحضارته:

حظي تاريخ الإسلام، وحضارته، وتراثه باهتمام واسع من المستشرقين، وصار ذلك أحد أبرز ميادين دراساتهم؛ لكثرة ما وجدوه من ثراء وخصوبة وتنوع وشمول، ولكونه يتفق وأهداف الاستشراق، فحطوا رحالهم عنده بمختلف مساراتهم العلمية ومناهجهم البحثية، دراسةً وتقييمًا وتشكيكًا وانتقاصًا وإشادة أحيانًا، وصار مرجعهم الثري للكتابة حول التطبيق العملي والحياتي للإسلام وحياة المسلمين والأحداث المتعلقة بهم.

وتجلى هذا الاهتمام من خلال قيامهم بجمع "معلومات كثيرة عن الإسلام والمسلمين، وقد مكنهم الاستعمار الصليبي الذي نهب ثروات المسلمين، وتراثهم الفكري والحضاري، وسرق مخطوطاتهم ونقلها إلى عواصم الغرب وخزائنه من أن يجمعوا هذه المعلومات، وأن يُدرسوها في مؤسسات علمية (معاهد وجامعات)، وأن ينشروها في مقالات وكتب، بل وفي معاجم وموسوعات"(٢٧)، ثم اتسع هذا الاهتمام في مفهومه ومعناه، وأنواعه، وأغراضه، التي باتت جلية أحيانًا حد المجاهرة بالعداء للحضارة الإسلامية والإسلام برمته، وتجلى هذا التوسع في مجموعة من المعالم لدى الدارسين والمهتمين لشأن التاريخ للحضارات.

كان علم الاستشراق عند بداياته يرتدي – في الظاهر – رداء العلم، ويدعي المنهج العلمي في دراسة الشرق بكل مكوناته ومقوماته، "وبمرور الزمن تعددت وتغيرت اتجاهات المستشرقين؛ من علمية محايدة إلى عملية موجهة توجيهًا أيديولوجيًا معينًا ليخدم أغراضًا بعينها؛ سواء أكانت دينية أو عسكرية، أو استعمارية، أو اقتصادية، وتلك هي أغراض الاستشراق الرئيسة الكبرى، وإن تظاهر بأغراض أخرى تكتسي بالحياد العلمي"(٢٨).

(٢٧) أحمد عبد الحميد غراب، المستشرقون والموضوعية، (ص١٣).

(٢٨) خالد حربي، دور المستشرقين في موقف الغرب من الإسلام وحضارته، مقال في المجلة العربية، العدد ٥٥٧، ٢٠١٥/١٢/١١م.

وقد شغل التراث الإسلامي العقل الاستشراقي الذي غاص في عمق هذا التراث الحضاري المتنوع، وهو بصدد الكتابة عن الإسلام وتراثه وحضارته وإنجازاته وتاريخ المسلمين، سواءً أكان ذلك وفق خلفية استشراقية غربية مجحفة حاقدة على الإسلام وتراثه الحضاري، سعيًا إلى الإقلال من شأن التراث الإسلامي وموقعه المتقدم في التاريخ والحضارة الإنسانية، أم وفق منهج علمي رصين ومعتبر يتحرى العدل والمصداقية والإنصاف والإنجاز الحضاري للبشرية عبر تاريخ وعطاءات المسلمين. ومع الإقرار بأن إجحاف المستشرقين هو الأصل الغالب، ومهما كان هناك من قصد نبيل أو دافع علمي نزيه عبد بعض المستشرقين؛ فإنه يبدو محدودًا جدًا، أو تائهًا في محيطٍ واسعٍ من الدوافع المشبوهة، والأهداف الخبيثة، والمقاصد التي تفتقد النزاهة، سواءً أكانت على المستوى العام للاستشراق أم على مستوى بعض الأفراد بمختلف اتجاهاتهم، ولعل هذا يستدعي الوقوف على فكرة الدراسة الفردية للمستشرقين[٢٩]، والتي يؤكد عليها قاسم السامرائي بقوله: "وإننا نخطئ إذا قررنا هذه النتيجة حكمًا عادلًا؛ لأن هذه النتيجة تضم أولئك الذين آثروا الانزواء في صوامع العلم لأجل العلم والمعرفة، ومن هنا أرى أن الاستشراق بتياراته المختلفة يجب ألا يُدرس كتيار عام أو ظاهرة عدائية، بل أرى أن يدرس المستشرقون على أساس الأفراد"[٣٠]، وهذا هو مسار هذه الدراسة.

المطلب الثاني: مدى التزام المستشرقين بمنهجية البحث العلمي في دراسة الإسلام وحضارته:

وقد دأب المستشرقون على وضع فكرة معينة في أذهانهم، ومن ثم يتصيّدون الأدلة الضعيفة أو الملفقة من هنا وهناك لإثباتها، وحينما يبحثون عن هذه الأدلة لا يهمهم مدى صحتها وسلامتها بمقدار ما يسعون لإثبات كلامهم وموضع الاستفادة منه، لدعم قناعاتهم الذاتية، ومواقفهم الشخصية، واتهاماتهم الباطلة، وكثيرا ما يستنبطون الرأي الكلي من رأيٍ شاذٍ أو موقفٍ شخصيٍ أو حادثةٍ جزئية، ومن ثمَّ يقعون في مفارقات عجيبة، واتهامات زائفة، وأوهام واهية.

(٢٩) تؤكد الباحثة على أن هذه الرؤية للدراسة الفردية للاستشراق ما تزال بحاجةٍ لبحثٍ مستفيضٍ وتحقيقٍ علميٍ شامل؛ للتوصل إلى رؤيةٍ واضحةٍ واستخلاص نتائج صحيحة.

(٣٠) قاسم السامرائي، الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، (ص١٣٩).

وعلى الرغم من كمية الإجحاف في مناهج المستشرقين المتحاملين على التراث والتاريخ الإسلامي؛ إلا أن هذا لا يعني أن أحدًا منهم لم يكن منصفًا، متجردًا من الأهواء، بعيدًا من الزيغ والتحامل، كما أن هذا لا يعني أن دراسات المستشرقين وجهودهم لم تُسْدِ للحضارة العربية الإسلامية خدمات جليلة، بما سبقوا إليه ودرسوه وحققوه من التراث، وبما توصلوا إليه من مناهج البحث والتحليل.

فالحقيقة التي لا مراء فيها أن قِلةً منهم تحلوا بالإنصاف، وكانت جهودهم في خدمة التاريخ الإسلامي وتراث المسلمين وتحقيقه ودراسته ونشره وحفظه لا يمكن إنكارها، ولا التقليل من قيمتها، وإن "التقييم الظالم لأعمال الأجيال المتتالية من المستشرقين أو المختصين بمعرفة الشرق، والذين لا يهدفون إلى أي غرض أو مصلحة شخصية من وراء هذه المعرفة مرفوض قطعيًا، إنهم يهدفون إلى خدمة العلم والفضول العلمي الذي يشكل إحدى خصائص الإنسان"(٣١).

ويلاحظ الباحثون عند اطلاعهم على النتاج الاستشراقي في تعاطيه مع التاريخ والتراث والعطاء الحضاري الإسلامي أن المستشرقين المنصفين للحضارة الإسلامية، ينقسمون إلى قسمين:

الأول: جماعة اشتهروا بالإنصاف في الأوساط العلمية، وأظهروا أنهم أقبلوا على الاستشراق بدافع من حب الاطلاع على حضارات الأمم وأديانها وثقافتها ولغاتها، وأنهم متحررون تمامًا في بحوثهم العلمية من أثر العواطف الدينية، فكتبوا عن العروبة والإسلام، فظهروا بذلك في ثوب نظيف على جسد وسخ. الثاني: جماعة لهم أهداف علمية خالصة، لا يقصد منها إلا البحث العلمي، والتمحيص، ودراسة التراث العربي والإسلامي دراسة تجلو لهم بعض الحقائق الخافية عنهم، وهذا الصنف عدده قليل جدًا، وهم مع إخلاصهم في البحث والدراسة لا يسلمون من الأخطاء والاستنتاجات البعيدة عن الحق؛ إما لجهلهم لأساليب اللغة العربية، وإما لجهلهم بالحقائق التاريخية، وتأثرهم بكتابات ومصادر وقعت في أخطاء فأخذوها على عواهنها، وسرعان ما يرجعون إلى الحق حين يتبين لهم(٣٢).

(٣١) محمد أركون وآخرون، الاستشراق بين دعاته ومعارضيه؛ (ص٢٩).

(٣٢) ينظر: عادل ماجد محمد، الفهم الاستشراقي لتفسير القرآن الكريم، رسالة ماجستير، (ص٩).

ولا يمكن إنكار أن كثيرين منهم قد وقع في أخطاء قد تكون غير متعمَّدة، وأن بعضهم كتب بدوافع دينية بحتة افترى بها على الإسلام، بيد أن آخرين لم يحيدوا عن الروح العلمية، بل أثنوا على التاريخ والتراث الإسلامي، وعابوا على مَن كانت نظرتهم صليبية، ودافعوا عن الإسلام، ونوهوا بفضله، وهؤلاء تحلوا بالموضوعية والتجرد للحقيقة دون غيرها. وهؤلاء المنصفون هم قلة إذا ما قُورنوا بالذين ناصبوا الإسلام العداء، وكرسوا جهودهم لتشويهه، وتزوير حقائقه، وتزييف أخباره، وإنكار أفضاله، والتجني على علمائه في كتبهم ومؤلفاتهم.

وعلى الرغم من تحيز بعض المستشرقين أو ظلمهم؛ فإن عددًا منهم قد أسهم في إبراز بعض الحقائق حول الإسلام وتاريخه وتراث المسلمين وحضارتهم، بصرف النظر عن خلفياتهم الفكرية. وكرسوا جهودهم لدراسة العلوم الإسلامية بمنهجية علمية خالصة، ودافعهم في ذلك البحث عن المعرفة، دون دوافع مادية أو أيديولوجية. وقد أثمرت جهودهم في الكشف عن كنوز معرفية هائلة كانت مدفونة لقرون، وخرجت إلى النور من جديد. ومن خلال هؤلاء برزت حقيقة وجود مستشرقين منصفين؛ تجردوا للكشف عن الحقيقة التاريخية دون تجنٍ أو إجحافٍ بحق الإسلام وشريعته وحضارته وتراثه وتاريخه.

ويرجع بُعد مناهج الاستشراق عن المنهج العلمي النزيه لأسباب كثيرة؛ بعضها راجع لطبيعة الاستشراق ونشأته وأهدفه، وبعضها راجع لعجز طبْعي فطري فيهم يحول بينهم وبين امتلاك وسائل البحث في العلوم الإسلامية وأدواته[٣٣]، وقد يستغل المستشرقون صراع التيارات المنهجية بين المسلمين، فيأخذوا بأقوال المدلسين وناشري الأكاذيب والافتراءات. لكن "هناك فئة من المستشرقين ممن تبين لهم عُقم مناهجهم التاريخية البالية، وانسداد طرقها وعدم جدواها، قد نحوا منحى جديدًا في دراساتهم مستخدمين طرائق العلوم الإنسانية المعاصرة، والمناهج التحليلية في نقد النصوص"[٣٤]، إلا أن هؤلاء أقلية في طابور المستشرقين.

(٣٣) ينظر: عبد العظيم محمود الديب، المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي، (ص٤٤، ٤٥).
(٣٤) حسن عزوزي، مناهج المستشرقين البحثية في دراسة القرآن الكريم، (ص٦).

المبحث الثاني

عرض آراء المستشرق ستيفن هامفريز عن معاوية ﷺ

لا بد من الإشارة قبل عرض مطالب هذا المبحث أن الباحث قد استقرأ غالب نصوص الكتاب وانتقى منها ما يعبر عن فكريه ومضمونه، وما يحقق أهداف البحث وتطلعاته، ويكشف الخلفية الاستشراقية لهمفريز.

المطلب الأول: آراء المستشرق ستيفن هامفريز في نشأة معاوية وعشيرته:

يبدأ هامفريز كلامه بقوله: "يعد معاوية بن أبي سفيان من بين جميع الخلفاء الأول بالتأكيد الأكثر مراوغة وغموضا! إنه مراوغ؛ لأننا لا نعرف سوى القليل جدًا حتى عن الحقائق العامة عن سيرته"(٣٥).

وهنا يفترض هامفريز ابتداء مراوغة معاوية ﷺ لمجرد غياب كثير من سيرته، وبالبداهة فإن قلة الحقائق عن سيرة معاوية لا يحمل وزرها معاوية ﷺ نفسه، إلا إن كان الكاتب يفترض أن يكتب معاوية ﷺ عن ذاته وسيرته، ومما يدل على عدم مراوغته أنه قبل التحكيم(٣٦).

ثم يصفه بالمراوغة في خطابه، فيقول: "ويمكن أن يكون بليغًا لكنه يعتمد على الفطنة والسخرية بدلًا من الخطاب المؤثر المنسوب إلى خصمه علي بن أبي طالب. ولا يعرف أصدقاؤه ولا أعداؤه تمامًا ما كان يفكر فيه، حتى فات الأوان لفعل أي شيء حيال ذلك"(٣٧). هذه العبارة من هامفريز تصف شخصية معاوية السياسية بأنها تتسم بالدهاء والغموض، وتُلمح إلى أنه لا يعتمد على البلاغة والخطاب العاطفي، بل كان يعتمد على الذكاء الحاد والسخرية، وهما من أدوات التأثير. وأن أفكاره ونواياه كانت غير واضحة للآخرين، مما مكنه من السيطرة على الخلافة وتحويلها إلى إمبراطورية.

(٣٥) ر. ستيفن هامفريز، معاوية بن أبي سفيان، من الجزيرة العربية إلى الإمبراطورية، (ص١٢).
(٣٦) الطبري، تاريخ الرسل والملوك (٦٧/٥)
(٣٧) المرجع السابق، (ص١٦).

"ويجب الاعتراف بأنه لم يكن هناك ازدواجية بالنسبة إلى التجمعين الدينيين والسياسيين العريضين، الخوارج(٣٨)، والشيعة(٣٩)، وقد كان معاوية بالنسبة لهم رمزًا للشر المطلق، ورجلا عمل عن علم وسخرية لتدمير العهد الجديد الذي أقامه محمد، ولإعادة العالم إلى الهمجية الغبية للجاهلية؛ أي زمن ما قبل الإسلام"(٤٠).

وهذه العبارة تعكس تقييمًا نقديًا حادًا لسياسة معاوية ﷺ في الحكم، ولا نعلم على أي أساس بنى هامفريز هذا الاعتراف عنه؛ فهو يصمه بغير دليل أنه يدمر العهد الذي أقامه محمد ﷺ، وهو ما يتكئ فيه على حجة، وكأنه بهذا القول يخطب ودّ الشيعة، فهم يرون أنه اغتصب الخلافة من علي، الذي يعتبرونه الإمام الشرعي، والخوارج كانوا ضد معاوية وعلي -رضي الله عنهما- معًا، لكنهم رأوا في معاوية ﷺ تجسيدًا للملك العضوض.

وهذا التقييم الحاد ولا الإسقاط خطأ ترده أدلة الواقع السائد آنذاك: فقد قام معاوية ﷺ بحمايته للأمن في الشام وإدارة الدولة بشكل نظامي بعد استقرار الحكم، وقبوله ﷺ صلح التحكيم مع علي رضي الله عنه لتجنب حرب أهلية واسعة.

وهو يولغ في الوصف إلى حد لا يبقي معه على بعض استحسان لشخصه حين يجعله مزدريًا لدين الله ليس بنقل عن ولكن برؤية راصدة له إلى منتهى مطاف التناول.

"وزيادة على ذلك، هناك حال معاوية المزدرية لدين الله، ويتجلى ذلك من خلال دعوته عباد الله إعطاء البيعة لابنه يزيد ولي عهده"(٤١).

---

(٣٨) فرقة خرجت على علي ﷺ ممن كان معه في حرب صفين، وقد افترق الخوارج إلى عدة فرق يجمعهم القول بتكفير عثمان وعلي وأصحاب الجمل ومن رضي بالتحكيم وصوب الحكمين أو أحدهما، وتكفير صاحب الكبيرة، انظر: الملل والنحل (١/١١٤)، والفرق بين الفرق، (ص٧٢، ٧٣).

(٣٩) هم الذين شايعوا عليا رضي الله عنه على الخصوص، وقالوا بإمامته وخلافته نصا ووصية، إما جليا، وإما خفيا، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج عن أولاده وإن خرجت فبظلم يكون من غيره، وبتقية من عنده. انظر: الملل والنحل للشهرستاني، (١/١٤٦-١٤٧).

(٤٠) معاوية بن أبي سفيان، من الجزيرة العربية إلى الإمبراطورية، (ص١٦).

(٤١) المرجع السابق، (ص٢٠).

ثم يشكك في إسلام معاوية ﷺ، وأنه لم يسلم إلا لمصلحة ظهرت له فيقول: "وعلى الرغم من أن معاوية انضم في آخر الأمر إلى قضية الرسول، إلا أن أكثرهم اعتقدوا في أنه لم يفعل ذلك إلا بعد دخول الرسول في مكة (٦٣٠)، وهو تحول مصلحة إن وجد حقا"(٤٢).

في هذه العبارة يشير هامفريز إلى أن إيمان معاوية بالإسلام جاء متأخرًا، بعد فتح مكة، حين أصبحت الدعوة الإسلامية ذات قوة، وأن خصومه شككوا في صدق إيمانه، واعتبروا أنه إنما أسلم بدافع المصلحة السياسية، لا عن قناعة دينية.

وعبارة "تحول مصلحة إن وجد حقًا" تفيد أن هامفريز لا يعتقد بوجود تحول حقيقي إلى الإسلام من معاوية، بل كان إسلامه مجرد انتهازية سياسية.

حتى يصل باتهاماته لمعاوية ﷺ لأجل التشكيك به، إلى التعريض بأقاربه، كتعريضه بالخليفة الثالث عثمان بن عفان ﷺ، ويجعل كل ما بدر منه لأجل العائلة، فيقول: "وقد بقي معاوية في منصبه في عهد عثمان؛ ويعود هذا – جزئيا– إلى أنّ هذا الخليفة ابن عم معاوية من الدرجة الثانية، فقد حاول –عثمان– تعزيز سلطته على الأقاليم من خلال تعيين أعضاء من عشيرته حكاما"(٤٣).

"وقد كان معاوية في الواقع أثار عمدًا المرحلة الثانية من هذا الصراع برفضه الاعتراف بعلي خليفة شرعيا للنبي ما لم يسلم علي قتلة عثمان إليه من أجل القصاص"(٤٤).

في هذه العبارة يرى هامفريز أن معاوية ﷺ تعمد إثارة الصراع بعد مقتل عثمان، برفضه الاعتراف بشرعية خلافة علي، والسبب – بحسب هامفريز– هو أن معاوية اشترط تسليم قتلة عثمان للقصاص قبل أن يبايع عليًّا، معتبرًا أنه يتحمل مسؤوليةً غير مباشرة عن مقتل عثمان بسبب اعتماده على بعض الشخصيات المتورطة في الجريمة، وهذا الموقف كان خطوة سياسية مدروسة هدفها تقويض شرعية علي، وتثبيت سلطة معاوية في الشام.

(٤٢) معاوية بن أبي سفيان، من الجزيرة العربية إلى الإمبراطورية، (ص٢٢).
(٤٣) المرجع نفسه، (ص٢٢).
(٤٤) المصدر السابق، (ص٢٣).

وهذا الاتهام مردودٌ على هامفريز، ويمكنه تفنيده بكلام معاوية ﷺ نفسه، فقد أخرج الحافظ الذهبي عن يحيى بن سليمان أنه قال: قال أبو مسلم الخولاني وجماعة لمعاوية: أنت تنازع عليًّا؟ هل أنت مثله؟ فقال: لا. والله إني لأعلم أن عليًّا أفضل مني وأحق بالأمر، ولكن ألستم تعلمون أن عثمان قتل مظلومًا، وأنا ابن عمه وأنا أطالب بدمه؟ فَأْتُوا عليًّا فقولوا له فليدفع إليّ قتلة عثمان، وأسلّم له(٤٥).

ويبلغ التشكيك مداه في تدمير نية معاوية في الدين نفسه في أكثر من موضع مما يأتي من الكتاب، بصيغ مختلفة: "كان في التقوى الرسمية والسلوك الشخصي مقبولا بما فيه الكفاية (على الأقل لم يثر أي فضيحة عامة) لكن لم ينظر إليه أبدًا بوصفه متعلمًا دينيًا أو حتى ملتزمًا بقضية؛ وكثير التفكير بما يتجاوز المستوى السطحي لقد آمن بالله، وكان محقًا علانيةً في احتفالاته لا أكثر، وقد عده كثيرون غير مبال بالإسلام، ولحظ بعضهم منه تعاطفا مؤيدًا للمسيحين على نحو مثير للريبة"(٤٦).

وهذا النص يسقط أحكامًا أخلاقية ودينية على معاوية بناءً على تصور خارجي، ويفترض أنه "غير ملتزم بالإسلام" أو "متعاطف مع المسيحيين"، معتمدًا على الانطباعات وليس على الواقع التاريخي.

ووجه الخطأ في هذا الإسقاط، معاوية ﷺكان سياسيًا وحاكمًا عمليًا، فالتزامه بالإسلام يظهر في:

-إدارته للشام وفق مبادئ العدل وحفظ حقوق المسلمين.

-عدم التورط في الفتن أو الفضائح العامة، ما يدل على تقوى عملية.

-التحكيم مع علي رضي الله عنه وحفظ وحدة الدولة الإسلامية.

كما يفترض النص نية شر أو انحراف ديني بلا دليل تاريخي، متجاهلا دور معاوية ﷺ السياسي والدعوي في تثبيت الدولة الإسلامية الناشئة.

(٤٥) ينظر: سير أعلام النبلاء (١٤٠/٣)، (البداية والنهاية (١٢٩/٨)، وجوّد الحافظ إسناده في (فتح الباري ٩٢/١٣).

(٤٦) المصدر نفسه، (ص٢٤).

"وتظهر لنا القصص رجلا يتمتع بصفات إنسانية ونقاط ضعف شهية واسعة للطعام والجنس (وإن كان ذلك بالضبط أكبر إلى حد ما) ومعرفة وحب عميق للشعر الجاهلي (قبل الإسلام) والحالي، وذوق لمطابقة الدهاء مع مسؤوليه وخصومه (الذين هزموه في بعض الأحيان) والتفاني ربما- الكثير- لابنه يزيد".

لا يشير هامفريز هنا إلى أي مصادر للقصص التي تدعم ما يقوله، ولم يستشهد على ذلك، ولو اقتضابا، وإنما يحاول بمكرٍ ودهاءٍ إبراز صفاتٍ دنيويةٍ نادرًا ما تظهر عند خلفاء المسلمين فضلًا عن أحد الصحابة.

"ويظهر معاوية في سنيه الأخيرة برغبة في أن تتحكم به زوجته، وكرم منه تجاه المتوسلين وأصحاب الالتماسات، ونتيجة تدين معين، إن لم يكن تقوى عميقة؛ يظهر بوصفه رجلا يجسد فضائل الجاهلية، ولكن ليس له مكانة خاصة في تقوى المسلمين، إنه يحترم الإسلام، ولكن ليس هذا ما يحركه"(٤٧).

وهذا النص يكشف عن خلفية استشراقية ترى الأمويين من منظور النفوس والسلوكيات الفردية، لا كفاعلين سياسيين مسلمين، مُسقِطًا على معاوية ﷺ قيم التقوى والدين بحسب تصور خارجي لا يعكس مقاييس الشريعة، فيتحوّل الحاكم إلى شخصية تحكّم بها الدوافع الفردية أكثر من التزامه بالشرع أو دور الدولة في حفظ وحدة المسلمين.

وتحت عنوان: (سياسات علم الأنساب)، يقول هامفريز: "يمكن في بعض الحالات نقل اسم النسب جيلا ذهابا وإيابا، ويطلق على الأمويين أحيانًا اسم بني عبد شمس والد أمية؛ لأن هذا الاسم يرمز إلى انقسام سياسي حاسم في قبيلة قريش. وعبد شمس أخو هاشم، وهاشم هو سلف السلالة التي أنجبت النبي محمدا، وإن ادعاء بني هاشم بقداسة خاصة تجاوز النبي، فقد كان ابن عمه الأول علي بن أبي طالب الخليفة الرابع والمؤسس غير المتوقع للإسلام السني، في حين أنتجت سلالة أخرى الخلفاء العباسيين الذين حملوا اللقب"(٤٨).

"إن تاريخ بني هاشم هو إلى حد كبير تاريخ الإسلام في العصور الوسطى. وقد كان نسل بني هاشم بدءا من إعلان محمد أنه نبي خصوما اشداء، وأعداء ألداء أحيانا لأحفاد عبد شمس! ويرجع التقليد هذا التنافس إلى عصور

(٤٧) معاوية بن أبي سفيان، من الجزيرة العربية إلى الإمبراطورية، (ص٢٤).
(٤٨) نفسه، (ص٥٧).

ما قبل الإسلام، حين تنافس بنو عبد شمس وبنو هاشم على الصدارة في مكة، وأصبح بنو هاشم بعد مجيء الإسلام السلالة المقدسة لا محالة، بينما كان بنو عبد شمس موصومين-على نحو لا يمكن إصلاحه-بأنهم أعداء الله ورسوله"(٤٩).

أقام هامفريز فرضيته هذه ونسج عليها شخصيته، وحمل الصراع بين الحق والباطل كله في قريش على هاتين القبيلتين واختزله فيهما، مما ينفي أن يكون الاختلاف حول كفر وإيمان.

وهذا يعكس ميله إلى تأطير الصراع بين بني هاشم وبني عبد شمس في إطار صراع دموي متوارث ومقدس، مع إسقاط أحكام قيمية على الأجيال اللاحقة كما لو أن نزاع ما قبل الإسلام استمر بلا تحكم بالعقل أو الشرع. وتعكس الخلفية الاستشراقية نظرية تقسيم العرب إلى الخير والشر عبر العصور، مع تصوير بني هاشم على أنهم السلالة المقدسة، وبني عبد شمس على أنهم معادون للإسلام بشكل حتمي، متجاهلا أن الإسلام لا يعترف بالتصنيفات الموروثة.

وغرض هامفريز من ذلك: القول بأن التاريخ الإسلامي مبني على الصراع بين الحق والباطل، وأن الخلاف ليس سياسيًا، حيث تُستخدم الأنساب والرموز لتبرير القفز على السلطة أو نزعها.

"وحين تسلل محمد وأتباعه خلسة إلى واحة يثرب بعيدًا إلى الشمال، عادت الحال في مكة مؤقتًا إلى طبيعتها، ولكن الحال الطبيعية تلك انتهت حين بدا أتباع محمد في العام التالي بمداهمة القوافل المتجهة من وإلى مكة، واستبدلت حال عدم اليقين وحلت الأزمة محلها في عام (٦٢٤) حين تم إرسال قوة إغاثة قوامها (٩٥٠) رجلا من مكة لحماية قافلة رئيسة تعرضت لكمين في منطقة آبار بدر، وعلى مدى السنين الست-كما تخبرنا الروايات التقليدية- تقدم والد معاوية أبو سفيان وقاد المقاومة المكية ضد محمد"(٥٠).

وهذا النص لهمفريز يصور النبي محمدا ﷺ وأصحابه على أنهم متسللون أو مهاجمون للقوافل، ويضخم دور أبي سفيان ومعاوية رضي الله عنهما كمقاومين أبطال، مع تقديم الأحداث بمنظور صراع مصالح قبلية بحتة.

(٤٩) نفسه، (ص٥٧).

(٥٠) معاوية بن أبي سفيان، من الجزيرة العربية إلى الإمبراطورية، (ص٦٣).

وتظهر الخلفية الاستشراقية لهمفريز حين يقرأ التاريخ الإسلامي من منظور خصوم النبي صلى الله عليه وسلم، ويهمش الأبعاد الدينية والدعوية للإسلام، ويحول الدعوة النبوية إلى نزاع سياسي وعسكري بحت، وهو ما يعكس تحيزه التاريخي والأيديولوجي ضد الفهم الإسلامي الأصيل للأحداث.

ثم يقول: "حين فشلت قريش وحلفاؤها في غزو يثرب، وقد كان معاوية بحلول هذا الوقت كبير السن بما يكفي (في مرحلة ما من العشرينيات من عمره) للاضطلاع بعمل في المعارك والغارات في الصراع مع محمد، ولا بد من أنه فعل ذلك، لكنه لم يكن شخصية بارزة"(٥١).

وقول هامفريز هنا: "لا بد من أنه فعل ذلك"، وهو افتراض غير موثق، إذ لا توجد مصادر تاريخية مؤكدة تشير إلى مشاركة معاوية في غزوات قريش ضد النبي ﷺ، خصوصًا في بدر أو أحد.

وقوله: "لا بد" يعكس منهجًا استنتاجيًا غير قائم على أدلة، مما يضعف الحجة التاريخية، وهو هنا يقلل من أهمية معاوية η في بداياته دون تفسير كافٍ لتطور مكانته. فمنهجه في بناء سيرة معاوية η قائم على الاحتمالات أكثر من الوقائع.

المطلب الثاني: آراء المستشرق ستيفن هامفريز في التكوين الديني لمعاوية ﷺ:

يقول هامفريز: "يعد صلح الحديبية وبعده فتح مكة في نظر المسلمين اللاحقين أحداثا (حاسمة بالنسبة لمعاوية. إذ توالت أسئلة من مثل: هل قبل معاوية الإسلام (ولو في السر فقط) في زمن الحديبية وبيعة الرضوان أم إنه صمد حتى آخر دقيقة ممكنة بعد ذلك بعامين حين كان محمد على وشك الدخول إلى مكة منتصرا فإذا كان الاحتمال الأول، فإن تحوله إلى الإسلام سيكون متأخرا بعض الشيء، لكنه صادق حقيقي، وإذا كان الاحتمال الأخير، فلا يمكن النظر إليه إلا بوصفه منافقا ساخرا لم يقبل الإسلام في قلبه، أو ربما-كما أكدت بعض الأخبار-أسلم في وقت ما بعد الحديبية وقبل دخول محمد مكة؛ وفي هذه الحال تكون حالة تحوله موضع شك"(٥٢).

(٥١) نفسه، (ص ٦٣).

(٥٢) المصدر السابق، (ص٦٦).

"وقد كان تفاني معاوية في الإسلام لا يزال موضع شك! وكان ينظر إليه بعين الريبة من قبل الدائرة المقربة من الصحابة الأول (جميعهم من مكة ومن قبيلة قريش) الذين تولوا السلطة بعد وفاة النبي. وعلى حد علمنا، كان معاوية واقعيًا دومًا، إذ كان يعلم جيدًا أنه لم يكن ولن يكون أبدًا عضوًا في تلك الدائرة الداخلية، ولم يكن بإمكانه القيام بعمل مهم في النظام الجديد إلا إذا كان مستعدًا لأن يصبح الخادم المخلص لهذا النظام، وهذا هو بالضبط ما شرع بالقيام به"(٥٣).

في هذا إيعاز إلى نيات المحيطين المريبة ونيات معاوية نفسه، في الوقت الذي يجعل القربى للصحابة من قريش.

وهامفريز في هذه العبارة –كما يبدو للباحثة– يُسقط تصورات أيديولوجية معاصرة على شخصية تاريخية، فيصف معاوية ﷺ وكأنه "خارج الدائرة الشرعية"، رغم أنه صحابي، وتولى الخلافة لعشرين سنة، وهذا النوع من التحليل يعكس انحيازًا ضمنيًا لفكرة أن المسلم الحق لا يمكن أن يكون سياسيًا بارعًا، وهي رؤية غير دقيقة من وجهة نظر الباحثة.

كما أن هذا الكلام من هامفريز لا يقوم على التوثيق، ويشوبه التناقض في تصوير معاوية، ويلمح منه انحياز لمصادر مذهبية، مما يجعله أقرب إلى الرأي المؤدلج منه إلى التحليل التاريخي المحايد؛ فتصوير معاوية كـ"خادم مخلص لنظام لا يؤمن به تمامًا" هو تصور فلسفي أكثر منه تاريخي، ويحتاج لمراجعة تاريخية.

وتحت عنوان: الثورة على عثمان، يقول هامفريز: "يظهر معاوية في هذه المشاهد الدرامية صوت التقوى الرصينة والاعتدال والوحدة الإسلامية؛ على عكس تعنت وتطرف خصومه؛ وأما إذا كان أي من ذلك يعكس" حقيقة معاوية" فهو أمر مفتوح للنقاش على أقل تقدير"(٥٤).

حتى في حالة إيجابية معاوية وموقعه من الفتنة، فإنه في حالة اشتباه لدى الكاتب، وتصرفه محل استهجان.

تصريحات معاوية "هل هذه التصريحات باي حال من الأحوال كلمات وفكر معاوية؟ من المؤكد أن معاوية كان له إسهام ما في تحديد الأيديولوجية الأموية ولا شيء في هذه التصريحات يتعارض مع ما نعرفه عن سياساته وأفعاله

(٥٣) المصدر نفسه، (ص٦٩).

(٥٤) معاوية بن أبي سفيان، من الجزيرة العربية إلى الإمبراطورية، (ص١٠١-١٠٢).

حين كان حاكما أو خليفة، وهي تمثل كيف فهم الجيل اللاحق المبادئ التي يقوم عليها حكمه، وكانت المسائل الرئيسة في توبيخه للمنشقين الكوفيين الدفاع عن أسبقية ومكانة قريش قبيلة النبي والصحابة الأوائل والأمويين. وكذلك ضرورة طاعة السلطة المستقرة والحفاظ على وحدة المسلمين. وأخيرا سلطة معاوية ومكانته في المجتمع الإسلامي" (١).

في ضوء الخلفية الاستشراقية لهمفريز نجد هذا النص يعكس هذا الحكم في قراءة إسقاطية للتراث الأموي من خلال تصوّرات متحيزة؛ إذ يُقدَّم معاوية باعتباره مُنظِّرًا لأيديولوجيا لسلطة مركزها قريش ووحدة الدولة، اعتمادًا على انتقاء روايات متأخرة تُعبّر عن فهم أجيال لاحقة لحكمه، لا عن خطابه التاريخي المباشر.

وتحت عنوان: (التداعيات: من يستطيع المطالبة بحق الحكم) يقول هامفريز: "أيًا كان ما فعله معاوية أو لم يفعله خلال التمرد، فإنه يواجه الآن أزمةً خاصةً به! فقد أظهر رد فعله جميع الصفات التي اشتهر بها: السماح للحال بالنضوج قبل إلزام نفسه بمسار عمل، وإخفاء دوافعه ومقاصده عن نظر العموم، والتخطيط طويل المدى جنبًا إلى جنب مع القدرة على اغتنام الفرص غير المتوقعة، حليمًا في بحثه عن الخلفاء حتى في الوقت الذي فوض فيه هوادة ولاءات مؤيدي خصومه، وعلى استعداد ليكون قاسيًا تمامًا في اللحظات الحرجة"(٥٥).

يحلل المستشرق همفريز شخصية معاوية رضي الله عنه وفق قالب نفسي–سلوكي نمطي، يفسّر أفعاله بمنطق الدهاء والانتظار والغموض والقسوة، وهو منهج متأثر بدراسات الشخصيات السلطوية في الكتابة الاستشراقية الكلاسيكية التي تربط الزعامة الشرقية بالحيلة السياسية. ويعمد إلى إرجاع قراراته إلى خصائص فردية لا إلى شروط الدولة والأزمة والحرب الأهلية، مما يُنتج قراءة شخصية–انطباعية تتجاهل السياقات المؤسسية والعسكرية والاجتماعية التي حكمت سلوك الحاكم في تلك المرحلة.

وتظهر الخلفية الاستشراقية لهمفريز في اعتماد سردية تضخيم البعد العاطفي والنفسي والدهائي في تفسير الفعل السياسي، بدل التحليل القائم على الوثائق.

(٥٥) معاوية بن أبي سفيان، من الجزيرة العربية إلى الإمبراطورية، (ص١٠٧).

"كان معاوية يتصرف بوصفه قريبا لعثمان والمتحدث الرسمي لمقام عشيرته-أولياء الدم وأصحاب الحق في القصاص- بوصفه ابن عم عثمان من الدرجة الثانية؛ ولم يكن أقرب أقاربه من الذكور، بل كان أقربهم مروان بن الحكم، لكن مروان الذي كان حاضرًا الكارثة في المدينة، كان منبوذًا سياسيًا وليس في حال تسمح له بتأكيد مزاعم الأسرة بينما كان معاوية في حال يسمح له بذلك)[٥٦].

وإن كان هناك قرابة وهذا طبيعي، فإنه من الظلم اعتبار مواقف معاوية في خانة الموائمة للاستئثار، ولا يصح أن يذهب المؤلف إلى ذلك دعمًا لفكرته في بناء امبراطوريته.

وهذا يجعلنا نسقط الزعم نفسه على المؤلف في أنه يجير السلوكيات والأحداث وحتى الخواطر والنيات ليبني رؤية كتابه.

وعن رأيه في الاتفاقية في صراع الفتنة يقول: "يصعب تفسير هذه الاتفاقية لأننا لا نعرف تماما ما تعنيه العديد من المصطلحات الأساسية لمن كتبوها، فعلى سبيل المثال، ما هو التوجيه الذي توقع المحكمون العثور عليه في كتاب الله (أي القرآن)؟ نحن لا نعلم؛ إذ يقول القرآن القليل حول الحكومة والحكم، ولا يصف حالًا مثل هذا أبدا، وربما كانوا يبحثون عن وصايا أخلاقية توضح ما إذا كان عثمان يستحق الموت من أجل أفعاله وهو الخليفة أم لا. وبالمثل، ما هي "السنة العادلة الجامعة غير المفرقة" هناك العديد من الاقتراحات المبتكرة، ولكن لا توجد إجابات محددة"[٥٧].

يرتكز كلام المستشرق هامفريز السابق الجعل والتعميم بلا دليل قاطع، مع وجود شواهد لغوية وتاريخية تشرح تلك المصطلحات في مصادر مبكرة. كما يبني موقفه على تصور ضيق لوظيفة القرآن، فيختزل توجيهاته إلى بُعد أخلاقي محض، متجاهلًا نظمه الواسعة في العدل والشورى والسلطة والمسؤولية، كما يغفل طبيعة التحكيم كعملية تجمع النص والمقاصد والعرف والسياسة الشرعية. وبناءً على ذلك فإن الحكم باستحالة التفسير حكم غير لازم؛ لأنه يعتمد على فرضيات في ذهن هامفريز لا على حقائق علمية ثابتة.

(٥٦) المصدر نفسه، (ص١١٥).

(٥٧) معاوية بن أبي سفيان، من الجزيرة العربية إلى الإمبراطورية، (ص١١٨).

"وسرعان ما أحضر يدا عراقية خبيرة، المغيرة بن شعبة الثقفي[٥٨] من التقاعد، وجعله حاكما للكوفة، وهو المنصب الذي شغله حتى وفاته في وقت ما بعد (٦٦٨) لم يكن المغيرة خيارًا مثاليًا على الرغم من أنه كان من صحابة النبي، إلا أن سلوكه الشخصي كان في كثير من الأحيان فاضحا، وكان قد اتهم بالزنا مع زوجة مسلم آخر، ولم يفلت من التهمة إلا من خلال الحيل القانونية؛ وكان متساهلًا مع مثير الشغب، فقد تجاهلهم ببساطة لأطول مدة ممكنة"[٥٩].

هذه التهمة من هامفريز للمغيرة بن شعبة ليدعم ادعاءه بضعفه، ولا نجد ما يدعمها لديه، مما يدل على فداحة التهمة وجراءتها.

المطلب الثالث: آراء المستشرق ستيفن هامفريز في فتوحات معاوية وقتاله:

تحت عنوان: (المواجهة بين علي ومعاوية)، يقول هامفريز: "كانت الأداة الجيدة الوحيدة المتاحة لعثمان تعيين رجال محافظين- كان ولاؤهم له ولسياساته أمرًا لا يقبل الشك، وقاده ذلك إلى تفضيل اقاربه، أو حلفاء تقليديين آخرين للعشيرة الأموية- في مناصب حكام العراق وإيران ومصر، وقد اثارت سياسة عثمان استياءً مريرًا لدى عدة مجموعات من رجال القبائل العربية، سيما أولئك الذين استقروا في المخيمات الشاسعة في الكوفة والبصرة (في العراق) والفسطاط (مصر)، وقد اعتقد هؤلاء المحاربون بطريقة لا تخلو من العدالة، أن ثمار الغزو التي تخصهم شرعيًا كانت تنزع من أجل منفعة المتطفلين، وطالبوا بالعودة إلى السياسات "الإسلامية" الحقيقية لأبي بكر وعمر"[٦٠].

يفسر همفريز سياسة عثمان رضي الله عنه في التولية بأنها كانت محكومة بالولاء الشخصي والقرابة، فيختزل العوامل الشرعية والإدارية والقبلية المعقدة في بُعدٍ واحد، مما ينتج قراءة تجزيئية للحدث، كما يصوّر احتجاج أهل

(٥٨) هو الصحابي الجليل المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود بن معتب الثقفي، الأمير، من كبار الصحابة أولي الشجاعة والمكيدة، شهد بيعة الرضوان، كان رجلا طوالا، مهيبا، ذهبت عينه يوم اليرموك، وقيل: يوم القادسية... مات أمير الكوفة؛ المغيرة في سنة خمسين، في شعبان، وله سبعون سنة. انظر: سير أعلام النبلاء، (٣/٢١ – ٣٢).

(٥٩) المصدر السابق، (ص١٢٧).

(٦٠) معاوية بن أبي سفيان، من الجزيرة العربية إلى الإمبراطورية، (ص٧٧).

الأمصار باعتباره ردّ فعل (عادلاً) ضد (متطفلين)، وهو توصيف منحاز شكلا ومضموناً، يتبنى خطاب الخصوم التاريخيين، ويكرر روايات الخصومة السياسية، ولا يقوم على دراسة شاملة لتلك المرحلة ومصادرها المتعددة.

"ولم يكن عثمان في حال تسمح له بشق طريقه مع أقرانه في الدائرة الداخلية للنبي في المدينة أو فرض إرادته على رجال القبائل العرب في المناطق المحتلة، ولا تدين له أي من المجموعتين بأي شيء، أو كان لديها ما تخشاه منه، وقد كان السهم الوحيد في جعبته ولاء أقاربه الأمويين الموصومين إلى حد ما"(٦١).

وفي هذه العبارة تبدو محاولة هامفريز اتهام عثمان بن عفان ﷺ بالنفعية واختزال دوره في الإنفاق، ورغبته في جعل المجتمع الإسلامي رفاهيًا وليست ضرورةً لأجل الجهاد؛ إنما هي ضمورٌ في الرؤية، وقلة في المعرفة، أو هو تعمدٌ يفتقر إلى الحيادية والموضوعية في وقت واحد، فقد أظهر التاريخ الإسلامي الكثير من جوانب شخصية عثمان وإن سلط الضوء على أبرزها وهي تضحياته وعلى رأسها تضحياته المالية التي لم يسبق إليها.

كما أن وصفه أقاربه بـ"الموصومين إلى حد ما" يحمل إيحاءً سلبيًا ترده الحقائق التاريخية، فبنو أمية كانوا من كبار قريش، وأسلم كثيرٌ منهم، وأسهموا في بناء الدولة.

وهذا التوصيف من هامفريز يعكس رؤية متأثرة بالسرد الشيعي أو النقد العباسي لبني أمية، كان ينبغي أن يتحاشاه إن قصد النقد المحايد.

ثم يقول: "وكانت سياسة معاوية المالية معتدلة بقدر ما نستطيع أن نقول، لذلك لم يكن مدفوعا أبدا إلى وسائل يائسة ربما تكون أججت أو اضعفت عزيمة المقاطعة، لقد أقام في حيز التنفيذ دولة داخل الدولة، لكنه كان متكتما ولبقا لدرجة أن إنجازه ذهب من دون أن يلحظه أحد تقريبا، وكان حالا يحسد عليها، وكان مصمما على الاحتفاظ به"(٦٢).

في هذا الطرح غمز ولمز إلى ازدواجية معاوية وانفصام شخصيتين ليقيم وضعين متناقضين سماهما الكاتب الدولة داخل الدولة

(٦١) المصدر نفسه، (ص٧٩).

(٦٢) المصدر السابق نفسه، (ص٩٨).

وتحت عنوان: (إنشاء البحرية)، يقول هامفريز: "يحسب لمعاوية أنه بنى أول أسطول في التاريخ الإسلامي بدعم من عثمان ﷺ، وهو مما يحسب لمعاوية وعثمان معا، فقد تناقلت السيّرُ أن معاوية عرض ذلك على عمر بن الخطاب ﷺ فاستهجن ذلك لعدم معرفته"(٦٣).

والكاتب يشير إلى ذلك بقوله: (وحتى أثناء خلافة عمر حين كانت حال المسلمين في سوريا ماتزال غير محسومة، ودافع معاوية عن بناء اسطول للمسلمين)(٦٤)، وهو يعتبرها بالحادثة الغريبة تلك التي حدثت بالمراسلة بين عمر بن الخطاب ومعاوية، وبين عمرو بن العاص(٦٥).

لكن الكاتب بعد ذلك يذكر وجاهة فكرة إنشاء معاوية للأسطول ووجود فرصة في عهد عثمان (وقد أثبت الأسطول الإسلامي الجديد جدارته بسرعة حين اجتاح معاوية قبرص (٦٤٩)(٦٦).

لا يترك هامفريز الحروب التي خاضها معاوية لأسبابها، بل يخوض فيها كثيرا ليجعلها هي الأخرى وسيلة لوصوله إلى مبتغاه، فتحت عنوان: (حرب الأناضول وأرمينيا)، يقول هامفريز: "فبمجرد أن أحكم معاوية قبضته على الخلافة، جدد الحملات البرية في الأناضول بقوة، وكانت هذه الحملات شعواء، فقد شنت كل صيف وغالبا في الشتاء أيضا، ونفذت الغارات البحرية ضد سواحل الأناضول الجنوبية وإيجة في بعض الأحيان بالتنسيق مع الحملات البرية وأحيانا على نحو مستقل"(٦٧).

ويلحق تشويه الغرض والهدف من هذه الحروب تشويه السلوك الحربي للمسلمين على خلاف ما عهد عنهم، ولا يخفي هامفريز ضغينته من هذه الحروب، وهذا يناقض الموضوعية، يتضح ذلك من خلال قوله: "لقد جادل أكثر المعلقين الذين لحظوا أن مدن الأناضول تعرضت للهجوم والنهب على نحو متواصل، لكن لم تحتل على نحو دائم أبعد من معابر طوروس؛ جادلوا في أن الأهداف الوحيدة كانت النهب والسلب، وأعتقد في أن هذا التفسير

(٦٣) المصدر نفسه، (ص٨٤).
(٦٤) نفسه، والصفحة نفسها.
(٦٥) انظر ما أورده الكاتب من رواية الطبري، ص٨٥.
(٦٦) معاوية بن أبي سفيان، من الجزيرة العربية إلى الإمبراطورية، (ص٨٨).
(٦٧) المصدر السابق، (ص١٥٥-١٥٦).

ضيق جدا، وبإمكاني القول: إن معاوية كان يدير حرب استنزاف لتقويض الأسس الاقتصادية والديموغرافية للحكم البيزنطي في آسيا الصغرى وإيجة، وتدمير الجيوش البيزنطية التي كافح قنسطنس وقسطنطين لإعادة بنائها"(٦٨).

"وعلينا أيضا أن ندرك التأثير العميق لقرار معاوية الإبقاء على دمشق بوصفها مقر إقامته الرئيس بعد انتصاره، وبذلك، لم يقطع صلاته الشخصية من مسقط رأسه مكة فحسب، بل قطع أيضا علاقات الحكومة الإسلامية المركزية المتبقية مع أصولها العربية، لقد أدرك معاوية أن الإمبراطورية التي شغلت نصف المقاطعات البيزنطية والمقاطعات الساسانية جميعها لا يمكن أن تحكم من واحة نائية تقع غرب المنطقة العربية؛ إذ لا يمكن لمثل هذه الإمبراطورية أن تدوم وتزدهر إلا إذا نقلت عاصمتها من أطراف العالم المتحضر القديم إلى قلب البلاد العريق للزراعة المستقرة والحياة الحضرية والتجارة والثقافة العالية والحكومة المنظمة"(٦٩).

يبني المستشرق هامفريز تحليله على فرضية أنّ انتقال مركز الحكم إلى دمشق يتقاطع الأصول العربية للدولة، وهو افتراض يقوم على منطق التعالي والازدراء في مقابلة ثنائية بين البداوة والحضر، مع أنّ المراكز الحضرية العربية كانت كثيرة عند العرب عبر التاريخ في الحجاز، اليمن، الحيرة، وهو بنبرة أيديولوجية يستبطن يرى أن الإمبراطورية الرومانية تمثل معيارية مسبقة، ثم يُسقِطها على القرار الأموي، وهو يغفل الوضع الداخلي إبان تولي معاوية رضي الله عنه الحكم، مما يجعل تفسيرا جزئيا.

المطلب الرابع: آراء المستشرق ستيفن هامفريز في كونه سياسيًا وأميرًا:

تحت عنوان: (القبائل العربية في سوريا)، يقول هامفريز: "كان يزيد خيارا غير مثالي، لكنه ربما كان الوحيد الذي له أي فرصة للحفاظ على التوازن الذي سعى معاوية بجد لتحقيقه خلال عقدين من حكمه، لقد كان معروفا ومحترما بين أعيان القبائل في سوريا، وكان بإمكانه- من خلال أقارب والدته وشبكاته الشخصية -الاعتماد على ذات القاعدة السياسية الصلبة بين محاربي القبائل السورية، مثل ما فعله والده... ليست القصة الكاملة وجود الشرعية أو عدم وجودها! لقد كانت المشكلة الأساسية التي واجهها معاوية على الشكل الآتي: تمكن بمهارة تامة

(٦٨) معاوية بن أبي سفيان، من الجزيرة العربية إلى الإمبراطورية، (ص١٥٧).
(٦٩) المصدر السابق نفسه، (ص١٦١).

من إدارة العالم السياسي الذي ورثه عامر (٦٦١) ولكن العالم كان يتغير بسرعة، وأصبح توازن القوى الذي حققه غير ذي صلة في العقد الذي أعقب وفاته"(٧٠).

والقول بأن معاوية "أدار العالم السياسي بمهارة" يتجاهل فيه هامفريز أن الحكم في الإسلام لم يكن مجرد إدارة سياسية، بل كان مرتبطًا بالوحي، والشورى، والعدل، والبيعة الشرعية.

كما أنه يتعامل مع الخلافة الإسلامية وكأنها نظام دنيوي بحت، وهذا يدل على ضعف فهمه لمفهوم الدولة في الإسلام.

"يحتاج التأثير الطويل المدى لسياسات معاوية على الكنائس المسيحية في سوريا (وأماكن أخرى) إلى مزيد من التحقيق، فربما كان متسامحا مع المعتقدات والممارسات المختلفة، وربما كان ينظر إليه بوصفه مسيحيا محبا (على الرغم من أنه لم يكن على حساب تفوق الإسلاميين السياسي والاجتماعي) ولكن لا شك في أن عائدات الإمبراطورية الرومانية في مصر وسوريا قد تدفقت الآن على النظام الإسلامي، ولم تكن كذلك، مثلما كانت تحت ظل السلطة البيزنطية؛ تنفق على بناء الكنائس والأديرة"(٧١).

وينقض كلامه بقوله: "لم يلمح الكتاب المسلمون أو المسيحيون مطلقا إلى أنه اعتنق أي برنامج مسيحي أو رؤيوي. ومن ثم يبدو أنه لم ير مهمته أنها إيذان بنهاية الأزمنة، كما أنه لم يسع جاهدا إلى جعل الإسلام الدين النهائي والعالمي للبشرية"(٧٢).

ويستدرك: "ومع ذلك أمضى معاوية سني شبابه في بناء وتوسيع الامبراطورية الإسلامية بوصفه قائدا مرؤوسا في الحملات الفلسطينية والسورية في ثلاثينيات القرن السادس وحاكما لسوريا خلال أربعينيات وأوائل خمسينيات القرن السادس...وقد تكون حملات معاوية أيضا وسيلة لترميم طريقه الملتوي إلى حد ما إلى السلطة، فإذا استولى

(٧٠) معاوية بن أبي سفيان، من الجزيرة العربية إلى الإمبراطورية، (ص١٤٨).
(٧١) المصدر السابق، (ص١٥١).
(٧٢) المصدر السابق، (ص١٥٣).

على القسطنطينية، فمن سيهتم باتهامات الخداع في صفين؟ أنا أشك في أن معاوية كان يشعر بتأنيب الضمير تجاه صفين أو أي شيء آخر، لكن إذا كانت مبادراته العسكرية يمكن أن تتغلب على منتقديه فلم لا؟"(٧٣).

يوظّف المستشرق همفريز إسقاط (تأنيب الضمير) لتفسير دوافع الحملات العسكرية لمعاوية رضي الله عنه، وهذا يفتقر للدليل التاريخي، ويختزل الفعل السياسي في نطاق النزعات الشخصية لا في بنية الدولة ومقتضياتها، كما يحلل الحملات العسكرية بوصفها محاولة لتبييض صفحة صفّين، متجاهلا إن التوسع في البحر الأبيض المتوسط، كان لحماية الثغور، وهذا التفسير يقوم على قراءة انتقائية تربط الأحداث الكبرى بنوايا فردية مفترضة، بدلا عن تحليلها ضمن منطق الاستراتيجية وتوازنات القوة في العصر ذلك العصر.

ثم يقول: "يمثل معاوية مشكلات عديدة بالنسبة للكتاب السنة في أواخر القرن الثامن وما بعده، لكنهم جميعا متفقون في أنه كان مسؤولًا عن تحويل الخلافة إلى ملك في نظرهم، لقد حول حكومة تعمل وفقا للمبادئ التي أرساها الله ورسوله إلى هيمنة علمانية احتفظت باسم الإسلام إلا أنها لم تختلف عن حكومة أي امبراطورية أخرى! لقد قام بذلك من خلال طريقة وصوله إلى السلطة ومن خلال إقامة الخلافة على أساس الوراثة عوضا عن الاستحقاق والمكانة في الإسلام"(٧٤).

قول هامفريز يعكس رؤية أيديولوجية وسياسية ضيقة، تركز على التحول الوراثي، وتغفل السياق التاريخي، والإنجازات الإدارية، والهوية الإسلامية للدولة الأموية. كما أن وصف الحكم بأنه "علماني" لا ينسجم مع الواقع الديني والاجتماعي لتلك المرحلة، ويعكس إسقاطًا لمفاهيم حديثة على واقع تاريخي مختلف.

"استخدم معاوية لقب" عبد الله"، وكان نظامه "سلطان الله"، وخزانة الإمبراطورية "مال الله"، حيث تشير هذه المصطلحات إلى مفهوم استبدادي للحكم عند حاكم تأتي سلطته مباشرة من الله ويستجيب له وحده، وعلى الرغم من أن خلفاء معاوية الأمويين فكروا بهذه الطريقة، إلا أن من غير الواضح تماما ما إذا كان فكر بالمثل، ولعله كان

(٧٣) معاوية بن أبي سفيان، من الجزيرة العربية إلى الإمبراطورية، (ص١٥٤).
(٧٤) المصدر السابق، (ص١٦٧).

يحاول التأكيد على أن نظامه واصل المضي بإخلاص في الطريق التي رسمها القرآن والنبي وخلفاؤه الثلاثة الأول (أبو بكر وعمر وعثمان، لكن بالطبع ليس عليا)[٧٥].

وهذه العبار تسير على نفس النسق في التشكيك، وتشي إشارات هامفريز إلى تشويه نوايا معاوية.

"أعجب معاوية بالتقوى العميقة (على الرغم من أنه يمكن أن يكون ساخرا جدا حيال ذلك) لكنه لم يشارك إعجابه، وكان مهتما بالدين لكنه لم يشارك ذلك أيضا، لقد كان الاسلام حقيقيًا وملزمًا بلا شك، إلا أنه لم يشر في تصريحاته عنه إلى وصايا أخلاقية أو قانونية ملموسة، وقد خص الله محمدًا بأنه رسوله وجعله أفضل الرجال، لكن معاوية لم يناقش طبيعة رسالته مطلقا، فبالنسبة له، كان الإسلام أمرا بدهيًا، وهي حقيقة لا بد من قبولها، ولم يكن التفكير أو بناء مجتمع جديد أو أسلوب حياة جديد تحديا)[٧٦].

وقول هامفريز بأن معاوية "أُعجب بالتقوى لكنه كان ساخرًا منها" يعكس تفسيرًا نفسيًا مبنيًا على انطباعات غير مثبتة بالأدلة، وهو في الوقت نفسه إسقاطٌ حداثي على شخصية إسلامية تاريخية، وذلك ينبئ بوضوحٍ عن الفرق الكبير بين التحليل التاريخي العلمي النزية والإسقاط النفسي المعلول.

ثم يقول: "تثير علاقة معاوية بالمسيحية بعض الأسئلة المثيرة للجدل، إذ اشتهر معاوية بين الكتاب المسيحيين السوريين أوائل القرن الثامن، (يكاد يكون مبجلا) بالسلام والأمن اللذين جلبهما بعد عقود الحرب والفوضى، وبعدالته وتسامحه تجاه الكنائس المسيحية فهل يعني هذا أنه كان غير مبال دينيا، ومسلما من أجل مصلحته عوضا عن القبول الصادق؟"[٧٧].

حين نقرن هذه اللمزة لعلاقة معاوية بالمسيحيين إلى النفاق في تدين معاوية – كما ذكرنا قبل ذلك – يجد القارئ نفسه أمام اتهام كبير، وخلخلة لبنية معاوية الدينية، ونسفها من أساسها.

(٧٥) نفسه، (ص١٦٧-١٦٨).

(٧٦) المصدر نفسه، (ص١٧٩).

(٧٧) معاوية بن أبي سفيان، من الجزيرة العربية إلى الإمبراطورية، (ص١٧٩).

ثم يقول: "تشكل علاقة معاوية بالقدس جزءا رائعا من سياسته وإرثه، وهي العلاقة التي لم يبدأ العلماء في استكشافها إلا مؤخرًا، ويحتمل أن الدافع وراء التوغل العربي الإسلامي في سوريا وفلسطين – بدءًا من بعثة (مؤتة) الكارثية عام (٦٣٠) كان فرض السيطرة على الحرم التوحيدي العظيم في القدس"(٧٨).

في اعتبار هامفريز أن غزوة مؤتة عام ٦٣٠م محاولةً للسيطرة على القدس مغالطة تاريخية مكشوفة؛ لأنها تنطلق من منظور استشراقي غربي يسعى لإعادة قراءة التاريخ الإسلامي من منظور استراتيجي مصلحي لا ديني، وهو تأويل يفتقر للأدلة، كما أن غزوة مؤتة كانت مواجهة مع الروم في أطراف الأردن، وليس في القدس مباشرة، ثم إن سبب هذه الغزو ودافعها المعلن كان الرد على قتل رسول النبي، لا السيطرة على الحرم القدسي، قال ابن القيم: "وكان سببها أن رسول الله ﷺ بعث الحارث بن عمير الأزدي أحد بني لهب بكتابه إلى الشام إلى ملك الروم أو بصرى، فعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني، فأوثقه رباطًا، ثم قدمه فضرب عنقه، ولم يقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره، فاشتد ذلك عليه حين بلغه الخبر، فبعث البعوث، واستعمل عليهم زيد بن حارثة"(٧٩).

"وحتى في الموت، يبدو معاوية ساخرا! وكان السياسي الأكثر براعةً في عصره، وقد اشتهر بفطنته، وصبره، وبعد نظره في التخطيط؛ لكن عاصفة هائلة انفجرت في وجه امبراطوريته فور وفاته، ويكاد المرء بعد قراءة بضع قصص؛ يكاد يكون من المؤكد أنها ملفقة بعد عقود، نسمعه ينصح ابنه ووريثه، يزيد بالحذر من بعض الرجال، سيما الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير، مستشرفًا المأساة القادمة باستبصار شبه كامل، ويشير معاوية بهذا إلى أن الحسين ند غير مؤذ، وقد يضلله العراقيون بالثورة لكن لا بد من الصفح عنه"(٨٠).

"ويمكن القول: ... عبقرية معاوية السياسية لم تشتر إلا مهلة لمدة عشرين عامًا من الانقسام والحرب الأهلية، لكن، حتى لو قبلنا هذه الحجة، فإن تلك المهلة ليست أمرًا هينا، وقد كانت حاسمةً لبقاء وازدهار مشروع الإسلام بأكمله في نهاية المطاف"(٨١).

(٧٨) المصدر السابق، (ص١٨٢).
(٧٩) أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، (٣/٤٦٠).
(٨٠) معاوية بن أبي سفيان، من الجزيرة العربية إلى الإمبراطورية، (ص١٩١).
(٨١) المصدر السابق، (ص١٩٤).

ينتقد هامفريز معاوية في هذه العبارة ضمنيًا؛ بأن عبقريته السياسية لم تمنع استمرار الانقسام والحرب، بل اشترت (مهلة)، وهو في العبارة نفسها يتناقض مع نفسه فيبين أن هذه المهلة كانت حاسمة في إنقاذ مشروع الإسلام، مما يعيد الاعتبار لمعاوية كقائد سياسي فعّال رغم التوترات.

كما أن في هذه العبارة خطأ تاريخي، فموقعة صفين كانت قبل بداية حكم معاوية للدولة الأموية؛ أما مرحلة حكم معاوية فقد كانت مستقرة سياسيًا نسبيًا، وهذا يعكس ازدواجية في الحكم.

وفي وصف هامفريز عشرين عامًا من حكم معاوية بأنها (مهلة) – أيضًا – تبسيط مخل من الناحية التاريخية، لأن تلك الفترة شهدت، تثبيت دعائم الدولة الأموية، كما شهدت فتوحات إسلامية في الشرق والغرب، وشهدت تنظيمًا إداريًا لا يمكن اختزاله في مجرد (مهلة) مؤقتة.

المبحث الثالث

منهج المستشرق ستيفن هامفريز في عرض آرائه حول معاوية ﷺ

المطلب الأول: منهج المستشرق ستيفن هامفريز في تقسيم كتابه:

يعتمد منهج هامفريز في عرض كتابه على:

أولًا: تقسيم دراسة شخصية معاوية إلى موضوعات ومحاور:

قسم هامفريز كتابه إلى ما يعتقد بأنه سيوصله إلى هدفه الذي رسمه، وهو تسليط الضوء على العوامل التي وصلت بمعاوية من الجزيرة العربية إلى الإمبراطورية.

يعتمد منهج هامفريز في عرضه على التناول التقليدي للتراجم؛ فهو يبدأ تناوله بمنشأ الشخصية انطلاقا من محيطها في مكة، ويبسط القول في عشيرته بعد تقسيمه مكة إلى عشيرتين، هما: بنو هاشم، وبنو عبد شمس جاعلا بين القبيلتين صراعا على النفوذ في مكة قبل بعثة النبي ﷺ وبعدها؛ فقد تمثل بعد البعثة في مناصبة أبي سفيان العداء الشديد لمحمد وأصحابه، وذلك ملمح في نسب الشخصية تعتمده كثير من الترجمات التقليدية إلا أن هامفريز هنا يبني عليه أساس الصراع، واستمراره بين القبيلتين، وبين رموزهما ليجعل معاوية رمزا لبني عبد شمس على الرغم من إسلامه؛ لأنه يشكك عند كل فرصة في ذلك، ويجعل إسلامه سطحيا، ويربط هذا الإسلام بأغراض مصلحية هي التي ستوصله في النهاية إلى إمبراطوريته.

ويتمثل العرض في تناوله التقسيم التالي:

الفصل الأول: مشكلة معاوية: معاوية في عيون المسلمين اللاحقين – المصادر لسيرة حياة معاوية – سيرة معاوية: تخطيط كرونولوجي(٨٢).

الفصل الثاني: العقود الثلاثة الأولى: الوسط المكي – سياسات علم الأنساب

(٨٢) التخطيط الكرونولوجي: هو "علم ترتيب الحوادث في أزمنة وقوعها". جميل صليبا، المعجم الفلسفي، (٢/ ٥٦٨). دار الكتاب اللبناني – بيروت، ١٩٨٢م، صـ ٥٦٨.

الفصل الثالث: إرساء أسس السلطة: معاوية بوصفه سيدا سوريا: معاوية وفتح سوريا – معاوية يصبح حاكمًا – الحرب ضد بيزنطة – الحرب في البحر – الحرب في الأناضول وأرمينيا – معاوية والقتال العربي في سوريا.

الفصل الرابع: الحرب الأهلية الأولى وصعود معاوية إلى السلطة: الثورة على عثمان — التداعيات –المواجهة بين علي ومعاوية.

الفصل الخامس: أمير المؤمنين: تجدد الحرب ضد بيزنطة

الفصل السادس: أمير محنتنا: معاوية بوصفه رمزًا للتوتر الثقافي:

وهو في **الفصل الأول** من الكتاب، وهي مشكلة معاوية وفرعها إلى معاوية في عيون المسلمين اللاحقين، اعتمادًا على أن معاوية كأيقونة رمزية لم تظهر إلا في العصور اللاحقة، ثم هو يذكر المصادر التي تناولت حياة معاوية، ويناقشها، ويصنفها، وينقدها، ويختار منها، ويعلل لما يتركه كما أنه في الوقت ذاته يقوي موقفه من الاختيار سواء المصادر العربية أم الأجنبية، ومن ذلك الاعتماد الأكثر على البلاذري في الأنساب، والطبري في التاريخ فكلاهما يغطي جانبا مختلفا عن الآخر.

وفي الجزئية الأخيرة من الفصل يعرض مخططًا كرنولوجيًا لسيرة معاوية المتمثل بعرض التسلسل الزمني للعناصر الرئيسة.

وفي **الفصل الثاني** يتناول الثلاثة العقود الأولى لمكة ويعرض فيها مجهريا تكوين الوسط المكي، وحالته آنذاك، وسبب أهمية سلالة معاوية.

فقد ذكر الوسط الذي نشأ فيه وسلالة أسرته، ثم كيفية إرساؤه دعائم السلطة من خلال الحروب، والحرب الأهلية الداخلية، والثورة في عهده على عثمان، وتداعيات المطالبة بالحكم، والمواجهة بين معاوية وعلي، وتجدد الحرب في بيزنطة، ودور معاوية في التوتر الثقافي مما يجعل اعتماده في عرض شخصيته من خلال الوسط الذي عاش فيه، ومن خلال الحروب دون أي مصادر لسيرة حياة مستقلة، وما يذكره مما كتبه لا يزيد على مرجع واحد متكرر، هو الطبري.

وفي **الفصل الثالث** يتحول إلى محاور تتمثل في إرساء معاوية أسس السلطة، وكونه متأثرًا بسوريا من خلال عناوين جانبية: معاوية وفتح سوريا، معاوية يصبح حاكمًا، الحرب ضد بيزنطة، الحرب في البحر، الحرب في الأناضول وأرمينيا، معاوية والقتال العربي في سوريا، وهو بذلك لا يعتبر حروبه نهجا إسلاميا سار عليه سلفه من الخلفاء لإرساء دعائم الخلافة الإسلامية، وإنما يجعله هدفًا خاصًّا لإرساء دعائم حكمه من خلال صياغة المحاور.

وهو من جانب آخر يرصد بإعجاب فتوحات وقتال معاوية، ولا يخلو ذلك من ذكر عدم قدرته القتالية المباشرة، واعتماده في ذلك على غيره.

وفي **الفصل الرابع** الحرب الأهلية الأولى وصعود معاوية إلى السلطة، وينتقل إلى لب الأحداث التي عليها مدار فتنة بين معاوية وعلي، وهو لا يطيل فيها إلا من خلال محاور مباشرة، ولكن برؤية مختلفة لا تغوص في تفاصيلها، ولكنه لا يتركها إلى السطحية ولا إلى الموضوعية في الوقت نفسه، فالمحاور: الثورة على عثمان، التداعيات، المواجهة بين علي ومعاوية، كافية للإطلالة على تلك الأحداث وتوصيلها، وإن بصورة مغايرة ومقتضبة.

فلا يختلف منطلق هامفريز في ذلك عن منطلق غيره في أن معاوية كان متشبثا بحق دم عثمان، لكنه يشكك في مبعث نيته في ذلك، فهو يسبر غور الشخصية ليفصح لنا أنه كان من أجل أن يكمل تسلقه للوصل إلى سدة الحكم.

أما **الفصل الخامس** فهو يؤسس لاستقرار معاوية على عرش السلطة أو الإمبراطورية، ومن جانب آخر لتجدد الحرب على بيزنطة.

ويرسو هامفريز في **الفصل السادس**، وهو الأخير على كون معاوية رمزا للتوتر الثقافي فهو أمير محنتنا: معاوية بوصفه رمزًا للتوتر الثقافي، كما يصفه، وهي إشارة إلى أن معاوية جسّد انتقالًا من نموذج القيادة النبوية إلى نموذج إمبراطوري عملي، وهذا التوصيف يتجاهل فيه هامفريز أبعاد السياسة الشرعية الحاسمة في شرعية الحكم، خاصة في ظل الانقسام بين السنة والشيعة حول شخص معاوية.

المطلب الثاني: منهجه العلمي عرض آرائه حول معاوية ﷺ:

أولًا: طريقة الرجوع إلى المصادر والمراجع:

على الرغم من القائمة الطويلة التي ألحقها هامفريز في آخر الكتاب من المصادر والمراجع إلا أن استعماله للمصادر في عرض الشخصية كان قليلا، واستشهاده بها كان ضئيلًا، ولولا أنه أراد توجيه كتابه إلى فئة محددة يهمها لما رجع إلى تلك المصادر والمراجع، يقول: "موجه للقراء الذين بدأوا للتو في الانخراط في دراسة التاريخ الإسلامي، سواء أكانوا من المسلمين في المهجر الذين يرغبون في معرفة المزيد عن تراثهم التاريخي؛ أم من العلماء والمعلمين الذين يعملون في المجالات ذات الصلة"(٨٣)، ثم يوضح ذلك فيقول: "عندما بدأت الكتابة وضعت في المقام الأول من الحسبان مراعاة أحوال تلك الجماهير، والحفاظ على الحد الأدنى من الحواشي السفلية"(٨٤).

وعلى وجه خاص فقد كثر رجوعه إلى كتابين هما: كتاب الطبري وكتاب البلاذري، ولعل السبب هو تحديده الجهة التي وجَّه إليها كتابه، وقد ذكر المؤلف تركه لبعض المراجع اليونانية عدا نصوص محدودة.

ثانيًا: المنهج السردي في تناوله للشخصية:

يقوم المنهج السردي لهامفريز على الاستنتاج والنقل عن الطبري وبعض المؤلفين، والتعليق عليها بالموافقة أو الاستهجان إما لغرض نقضها، أو للتشكيك فيها، ويظهر نزع القداسة من خلال الألفاظ التي تتناول الشخصيات حيث يجرد الشخصيات مما عليها من هالة، ويستعمل الإساءة المبطنة، واللمز إلى بعض الشخصيات؛ كما في حادثة الإفك، وعند تناوله شخصية عثمان بن عفان أو التقليل من شأن عشيرة النبي ﷺ، والتقليل من قدرات المسلمين في المعارك، وإظهار قسوتهم في الجانب الإنساني؛ كدخولهم بيزنطة.

وهو حين يحلل الشخصية لا يعتمد على النقول وإنما على رأيه الشخصي فيها واستنتاجاته، والرجوع إلى المصادر لا يتم إلا عندما يستشهد بأقوالهم المباشرة، مثل: خطب معاوية، وزياد بن أبيه، وغيرهما، فيأتي بها من الطبري أو من البلاذري؛ لأن نقاش طبيعة القول وما يحكيه من تقوى أو روحانية أو بلاغة يستدعي إيراد النص للاستشهاد

(٨٣) معاوية بن أبي سفيان، من الجزيرة العربية إلى الإمبراطورية، (ص٨).

(٨٤) المصدر السابق، والصفحة نفسها.

به، وربما علل ذلك بقوله: "يجب أن أعترف بأن عرضي لمعاوية يَفتَرض مستوى من الوضوح والبساطة لا تبرّره المصادر؛ لأنها مصادر –أثرية كانت أم مكتوبة– مليئة بالثّغرات والغموض والتناقضات، ويمكن أن تكون كل فقرة في هذا الكتاب تقريبًا موضوعًا لمقالة مهمة أو حتى دراسة مفردة"(٨٥).

ويوضح هامفريز تصرفه في تلك المصادر لتتفق مع رؤيته وتصوره المسبق، فيقول: "صوَّرَتِ المصادرُ حول سيرة حياة معاوية مع التخيلات اللاحقة، والتشويهات الأيديولوجيّة والثّغرات، حالات من سوء الفهم التي كان ينبغي التعامل معها على نحو نقدي لتكون مفيدة"(٨٦).

ومما يحسب لهامفريز في منهجه أنه لم يعرض للفتنة في بابها المعهود عرضا مطولًا أو متشابكا، وكأنه نأى بنفسه عن ذلك قصدا؛ إما لئلا يخوض فيما خاض غيره فيكون قد أعاد ما كثر ذكره أو أنه خاف الدخول في أمر لا يمكنه الخروج منه.

وهو من وجه آخر يقلل من شأن المصادر التي تناولت تاريخ معاوية فهي كما يزعم: "وفي أي حال من الأحوال لم تكن المصادر محض اختراع، فهي تقدم سرديات وبيانات (موثقة) لها صلة ملموسة بأشخاص حقيقيين وأحداث حقيقية"(٨٧). ولا يورد هامفريز نتائج احتمالية على حساب الموضوع، وإنما نتائج مؤكدة كذهابه إلى أن معاوية كان مسيحيًا لاهتمامه بالمسيحيين وكنائسهم.

(٨٥) معاوية بن أبي سفيان، من الجزيرة العربية إلى الإمبراطورية، (ص٩).
(٨٦) المصدر السابق، (ص١٠).
(٨٧) معاوية بن أبي سفيان، من الجزيرة العربية إلى الإمبراطورية، (ص١٠).

المبحث الرابع

تحليل ونقد منهج المستشرق ستيفن هامفريز وآرائه حول معاوية ﷺ

المطلب الأول: تحليل منهج المستشرق ستيفن هامفريز وآرائه:

١ – تحليل منهج المستشرق ستيفن هامفريز:

تميز منهج هامفريز في كتابه عن معاوية بما يأتي:

أ – التكرار:

حيث يبرز التكرار في هذا الكتاب كلازمة لفظية، لا ينفك عنها أسلوب المؤلف وغدت سمة بارزة فيه، فمن عتبات الكتاب ومن خلال العنوان ابتداءً يشرح الكاتب آلية انتقال معاوية ﷺ من شبه الجزيرة، لبناء قيادة مقاطعتين شاميتين مهمتين، إلى قيادة أوسع دولة إسلامية إلى حد عصره، وليس هناك الكثير مما يتوقع أن يذكره الكاتب، غير بسطه القول مرارًا وتكرارًا لسياسة معاوية إجمالًا في تثبيت أركان حكمه مع أمراء القبائل الشاميين، وأساليب حكمه لهم، من خلال تقريبهم منه واستشارتهم أولا بأول في خطواته وخططهم، حتى غدا هذا التكرار لازمة واضحة للقراءة لا يحتاج إلى مزيد عناء لاكتشاف أهدافها، وهي تثبيت فكرة معينة تلح على الكاتب وأراد أن يؤكدها وأن يقنع القارئ بها(٨٨).

ب – التشكيك:

وهو سمة بارزة في منهج هامفريز؛ سواء كان في الأحداث أم تحليل المواقف، كما أن هذا الأسلوب فيما ليس بينا من التصرفات والسلوكيات التي تذكرها الأحداث، ولكنه إضافة إلى ذلك يلج في الغالب إلى التشكيك في النيات ويفسرها لصالح رؤيته، وذلك مما لا يصح، فالمتعارف عليه أن يوكل الشخص إلى نيته لا أن تبنى عنه فكرة وتحلل شخصيته من خلال تشريح نواياه، وهذا ما ألفيناه في منهج الكاتب الممتد على طول الكتاب، دون غفلة أو كلل منه.

(٨٨) مواضع التكرار في كتاب معاوية كثيرة جدًا، وهذه الكثرة منعت الباحثة من سردها في هذا البحث محدود الكلمات.

وإلى جانب أن الطريقة في التناول تشي بالكثير مما يدعم أسلوبه في التشكيك حتى يعضد التناول بعضه بعضا؛ ففي كل محور لا يكف هامفريز عن التشكيك بصور مختلفة، ويلح على ذلك كلما حانت له الفرصة.

ج – قلة الاحتفاء بالمصادر المتقدمة والاحتفاء بروايات الخصوم السياسيين، مع سوق القصص المشكوك فيها:

في تصور هامفريز لشخصية معاوية نجده يعتمد إلى حدٍ كبيرٍ على رواياتٍ منحازة ضد معاوية، مما أسفر عن ذلك تقديم روايات غير متوازنة، كما أنه ركز على كتابات البلاذري، الذي ينقل روايات بعضها من رواة شيعة أو خصوم سياسيين لبني أمية(٨٩).

د – التحليل النفعي للأدوار السياسية لمعاوية:

فهو ينظر إليه على أنه نهاز فرص من أجل الكسب السياسي في المواقف والأحداث.

٢ – تحليل آراء المستشرق ستيفن هامفريز:

ويمكن تصنيف آرائه على النحو الآتي:

أ – الآراء الصريحة بالاتفاق:

قليلة هي المواضع التي يتفق فيها الكاتب مع شخصية معاوية، فيبدي رأيه صراحة إيجابا فيه، وقد ذكرنا بعض هذه الآراء في موضعها من الآراء، ربما لأن الكاتب يجد نفسه أمام حقائق تاريخية لا يجد بدا من الاعتراف بها ولا يستطيع إنكارها، أو أنه فعلًا معجب بما يذكره، ويمكن أن أشير إلى بعض الآراء الصريحة مما تم ذكره سابقا.

ب: الآراء الملمزة بالرفض والتشكيك:

هناك قضايا محددة يلمز إليها المؤلف، ويتكرر هذا اللمز في كثير من المواضع فهو يلمز في دين معاوية، ويلمز في نوايا عثمان تجاه توليته معاوية.

---

(٨٩) نبّه عددٌ من الباحثين إلى أن البلاذري اعتمد في بعض رواياته على نَقَلةٍ كوفيين من ذوي الميول الشيعية أو ممّن كانوا في موقع الخصومة السياسية مع الدولة الأموية؛ وهو ما انعكس على بعض أخباره ذات الطابع السياسي.
يُنظر: إحسان عباس، مقدمة تحقيق أنساب الأشراف، (١/ ٥١)، حيث يصرّح بأن البلاذري أخذ روايات عن كوفيين فيهم شيعة وخصوم لبني أمية.

ج: الآراء القائمة على الفرضيات:

يفترض هامفريز كثيرا، وحين نقول يفترض فإنه مصطلح علمي بدلا عن مصطلح التشكيك فهو في الحقيقة يشكك وبشكل مباشر، ولا يتوارى خلف الأساليب أو الكلمات الرمزية، بل يكاد يكون جل منهجه – إن لم يكن كله – قائمًا على التشكيك، وهذه الآراء ماثلة فيما سقناه من النصوص السابقة.

د: الآراء المستندة إلى النصوص:

قليلة هي الآراء التي تستند إلى النصوص عند هامفريز، فهو لا يرجع إلى النصوص إلا قليلا، وفي قضايا معينة وتحديدا من مرجعي البلاذري والطبري بعد أن أسس قاعدة لعدم جدوى المرجعين في كثير من المواضع.

المطلب الثاني: نقد منهج المستشرق ستيفن هامفريز وآرائه:

١ – نقد رؤيته المُسبقة:

تنطلق هذه الدراسة من اعتبارات نقدية لطبيعة التناول الذي تفترض حياديته، مع حالة مشهدية تتزاحم فيها الرؤي المشبعة بالأيديولوجيا منذ التاريخ الغابر الذي قليلا ما توخى الموضوعية في موضوعات تمثل عصبا مهما في الثقافة العربية والإسلامية وتؤثر فيها سلبا وإيجابا.

ففي ظل رؤية مؤطرة بالأيديولوجيا مسبقا والتصورات الافتراضية يقدم الاستشراق شخصيات التاريخ الإسلامي، ويكسبها الأبعاد المرجوة التي لا تحيد عن الصبغة العامة للدراسات الاستشراقية عموما، يقدم هامفريز شخصية يكاد يكون الاتفاق حولها أكثر من الاختلاف ووضوح سيرتها أكبر من غبش الرؤية المصنوعة، ولا يعني بحال أن يستمر جدل السابقين حولها لدى اللاحقين فذلك من عقم التفكير وضلال التصور.

ويعرض هامفريز الشخصية برؤية مسبقة تبدأ من العنوان الذي يقودنا إلى غاية هامفريز دون مواربة، وهو وصول معاوية إلى عرش الإمبراطورية العربية؛ ويُظهره قائدًا توسعيًّا، على خلاف الواقع التاريخي، فقد كان معاوية يسعى إلى تثبيت الحكم وتجنب الفتوحات الكبرى مقارنةً بمن سبقه من الخلفاء، إضافة إلى أنه لم يبدأ من "الجزيرة العربية" سياسيًا، بل بدأ من الشام، حيث كان واليًا عليها منذ عهد عمر بن الخطاب، مما يجعل "الجزيرة" في العنوان غير دقيقة جغرافيًا، ويختزل شخصية معاوية في مشروع سلطوي لا علاقة له بالإسلام.

نعم: لقد كان عنوان الكتاب جذابا، لكنه عنوان مضلل للقارئ غير المتخصص؛ لأنه يوحي بمسار سياسي واضح بينما الواقع مغاير لذلك تمامًا، فالإمبراطوريات لا تبنى بين عشية وضحاها.

أما من حيث الشكل والنوع الكتابي فإن التناول لم يرق إلى نوع ترجمة الشخصيات المعهود وقصر في الوقت ذاته عن أن يكون سردية مكتملة لها أصولها في السير وفق خطوط السرد المتصاعدة المعروفة.

٢ – نقد منهجه:

الطريقة التي قسم بها هامفريز موضوعه لترجمة شخصية معاوية بن أبي سفيان ﷺ التزمت التقليد في تناول الشخصيات وابتعدت عنه في وقت واحد؛ فمن حيث الالتزام فإن وجود بعض العناصر والمنطلقات لتناول الشخصية سار مسار كل التناولات؛ مثل بلد النشأة وتأثيرها، وحياته السياسية والعسكرية، غير أنه ارتكز على الحياة الأولى يسيرا ولم يذكر صباه وتأثر صباه، وعوضا عن ذلك تناول الأنساب وما بين القبيلتين عبد شمس وبني هاشم من صراع مما جعل التناول منذ البدء سياسيا وقليلا منه عسكري، حتى حين أراد الكاتب إضافة ما يعتبره سينوع من محاور حديثه وهو دوره الثقافي انفلت الزمام منه إلى الناحية السياسية والعسكرية.

يفتقر التناول إلى تفاصيل البيت الأموي لمعاوية كما يفتقر إلى تمرحل حياته من الصبا إلى الشباب إلى الوفاة بشكل واضح ومكتمل، ويظهر جليا أن الكاتب لا يمتلك المعلومة ليحرك بها دفة السرد فافتقد طرحه إليه وجاء حديثه عن الشخصية نتفا تحركها محاور تتشابه وتتلاقى كثيرا مما حكم على العمل بالتكرار.

وكان يمكن للكاتب أن يعتمد ولو على بعض كتب النقول كالتي اختارها للطبري وللبلاذري، ليحيك نسيجا متماسكا وينفذ منه إلى ما شاء من الآراء التي تستند إلى نص تاريخي، لكنه بنى موقفا مسبقا من هذه النقول يتسم بالازدراء والاستخفاف والتنميط في جانب واحد هو الاستشهاد على بعض الأمور العابرة كبلاغته وفصاحته.

وقد افتقر الكتاب إلى الترابط البنائي بعيدا عن الانتقاء لمحاور تنهض بمضمون الكتاب ولا تمنحه الموثوقية التامة وتجعله في مصاف كتب الرؤية الشخصية لا أكثر؛ فما قاله الكاتب من المعلومات لا تعد جديدة على القارئ إن لم يمتلك القارئ العادي أكثر أو أدق منها.

ودون الوقوف عند مسألة طول الفهرس وتفاصيله، فإن ثمة ابتعادًا عن المباشرة في عرض ستيفن هامفريز، مما جعل التكرار ولازمة الرؤية حول معاوية أمرا طبيعيا، وهو وصم الكتاب بذاتية مفرطة.

٣ – نقد آرائه:

استطاع الكاتب من خلال مجموعة آراء أن يوجه النص إلى بوتقة واحدة تعطي فكرة للقارئ من زاوية نظره هو؛ سواء اتفق معه في وجهة نظره أم اختلف، وسواء أكانت تتفق مع ما هو معروف تاريخيا أم لا، وإن كان يعتور هذه الآراء الكشف التاريخي الذي يناقضها من جانب كون الشخصية مشهورة ومعروفة، ومن جانب آخر طابع التحامل الواضح في هذه الآراء أو لنقل المقصدية المسبقة للخروج برؤية للشخصية تتفق مع توجهه.

أ – البعد عن الموضوعية:

يصمم الكاتب –على الرغم من كونه باحثا يجب أن يكون حياديا وموضوعيا– على فكرة أيديولوجية معينة، وهي تسليمه الكامل خلال كل الكتاب بأن المسلم الحقيقي لا يصلح لأن يكون سياسيًا ذا دهاء، مع ذكره في منتصف الكتاب أن القرآن لم يأت فيه كلام كثير عن الحكومة وتفاصيل حالة الحاكم، لكن يستمر في أن المسلم كامل الإسلام، لا بد أن تفشل مشاريعه السياسية (يقول القرآن القليل حول الحكومة والحكم، ولا يصف حالا مثل هذا أبدا، وربما كانوا يبحثون عن وصايا أخلاقية توضح ما إذا كان عثمان يستحق الموت من أجل أفعاله وهو الخليفة أم لا. وبالمثل، ما هي "السنة العادلة الجامعة غير المفرقة" هناك العديد من الاقتراحات المبتكرة ولكن لا توجد إجابات محددة)[٩٠]. وتحت سقف هذه الفكرة الملحة التي كان يعتقدها كان يفسر كل كلمة دينية أو فعلة قام بها معاوية، بأنها قد جاءت في إطار الدعاية ولا حقيقة لاعتقاده صدقها. فقط لأنه نجح سياسيًا على نحو بارع. الأمر هنا ليس متعلقا بمعاوية، بل هو متعلق في نظر هامفريز بأهلية المسلم –كامل الإسلام– لأن يكون سياسيًا ناجحًا، كان معاوية يمثل لدى هامفريز مشروعا لبناء سردية توضح أن تقدم الإسلام سياسيًا ضمن الخلافة، لم يكن إلا نمطيًا، بل لم ينجح ذلك إلا بإماطة الإسلام جانبًا بشكل تام، لتحل محله السياسة التي لا يرحب بها الدين الاسلامي ولا يرضى بها.

ب – تبنيه لآرائه والبناء عليها كنتائج: يحمل هامفريز رؤية مسبقة تجاه معاوية، وقد جاء الكتاب ليثبتها؛ تتمثل في كون السلطان الإسلامي، لم يقدر على تكوين إمبراطورية، أو مملكة موسعة إلى حد مذهل، إلا وفقا

(٩٠) معاوية بن أبي سفيان، من الجزيرة العربية إلى الإمبراطورية، (ص١١٨).

لذهنية تتعامل مع الإسلام ككل بصورة هامشية، وتكرار هامفريز لهذا المعنى تجاه معاوية، يوضح نوعية الثغرات في بحثه؛ والتي من أهمها سؤال: هل يمكن لباحث تاريخي اعتبار رأي شيخ عاش في القرون التالية معيارًا دينيًا لتقييم سياسة معاوية وتحديد مدى اهتمامه بالإسلام من دونه؟

كان هامفريز يتعامل مع معاوية على أنه في محكمة فقهية مستقلة تاريخيا؛ تقدم رأيها عند القرن الرابع أو الخامس، أو السادس، في صحابي كان خليفة المسلمين في القرن الأول لعشرين سنة، بخلاف ذهنية تتصف بترتيب الحجج وضبطها؛ من حيث اعتبار الصحابي؛ حاكمًا على من بعده، لا العكس.

والجزئية التي تعد مثلبة عند غيره في عدم تناول الواقع المكي هي بالنسبة إلى غيره ميزة تذكر له، إلى جانب عدم تكرار ما خاض فيه الآخرون من الكتاب لشخصية معاوية ليعطي أسلوبه ميزة مختلفة في التناول، وهو ربما ما يخفف وطأة حملته على معاوية في كل مورد يرد فيه.

ج – الإسقاطات النفسية:

لقد اعتمد هامفريز على مصادر غير موثقة، وإسقاطات نفسية، تشي بتناقضات داخلية في التحليل، كالخلط بين النسب والرمزية السياسية، مع إسقاطات غير دقيقة على القداسة الهاشمية، وإغفال السياق العباسي العلوي.

د – الروح الانتقائية:

ولقد سيطرت على روح هامفريز الانتقائية في قراءة التاريخ الإسلامي، وعدم مراعاة السياق الزمني، وإغفال تعدد الروايات، وعدم ملاحظة تطور المفاهيم الدينية والسياسية عبر العصور، لقد انحاز هامفريز لروايات متأخرة تحمل طابعا مذهبيا دون تمحيص أو موازنة بينها وبين بقية الروايات، وبنى عليها تصورًا كموقف عمر من معاوية، وهذا الانحياز في اختيار الروايات يعكس منهجه الانتقائي، مما يضعف موضوعيته في البحث.

وإضافةً لما تقدم ثمة إسقاط لنوايا غير موثقة على معاوية وعمر بن الخطاب، كالقول بأن عمر "كان ينوي طرد معاوية"، وهو افتراض لا يستند إلى دليل قطعي، فعمر بن الخطاب كان معروفًا بالحزم والوضوح، ولو كان ينوي عزل معاوية، لكان ذلك موثقًا في أقرب المصادر لعصره.

هـ – إغفال السياقات:

ولقد صاحب كل ما سبق إغفال للسياق الإداري والسياسي في الشام، فقد تولى معاوية الشام في عهد عمر، واستمر في منصبه حتى خلافة عثمان، مما يجعل فكرة "النية في الطرد "غير منسجمة مع الواقع السياسي.

وقد حفل الكتاب بالتعميم غير المدعوم حول موقف "الكتاب السنة"، فمثلا يقول هامفريز إن: "الكتاب السنة في أواخر القرن الثامن وما بعده متفقون على مسؤولية معاوية عن تحويل الخلافة إلى ملك، وهذا تعميم غير دقيق، فهناك تنوع كبير في المواقف بين المؤرخين السنة، فبعضهم امتدح معاوية كـ "كاتب الوحي" وصاحب الفضل في توحيد الأمة، بينما انتقده آخرون بسبب توريث الحكم لابنه يزيد[٩١].

و – الإغراق في إسقاط المفاهيم الحديثة على الحقائق التاريخية:

ولقد أغرق هامفريز في إسقاط مفاهيم الحداثة على نظام حكم إسلامي؛ كإسقاط مفهوم "الهيمنة العلمانية" حيث وصف هامفريز حكم معاوية بأنه "هيمنة علمانية" وهذا إسقاط على سياق تاريخي مختلف تمامًا؛ فالدولة الأموية حافظت على مظاهر الحكم في الإسلام، حيث كانت الشريعة الإسلامية هي الحاكمة، ونشر الإسلام، والفتوحات الإسلامية كانت في أوجّ قوتها، ويكفي دولة بني أمية فتوحات الأندلس والحضارة العظيمة التي أقاموها هناك، واستمر الوجود الإسلامي في تلك البلاد حتى بعد سقوط الدولة الأموية.

ز – الخلط في المفاهيم:

وأخيرا لعله يوجد في ذهنية هامفريز خلط مفهوم بين الخلافة كمصطلح سياسي شرعي إسلامي، ومفهوم الملكية، حيث يساوي بين (الخلافة) عن طريق ولاية العهد وبين (الملكية المطلقة)، دون أن يوضح الفروق بينهما في السياق الإسلامي، فالخلافة الأموية رغم تحولها إلى وراثية لكنها قد احتفظت ببعض من مظاهر الشورى والبيعة، ولم تكن ملكية مطلقة بالمعنى الأوروبي.

(٩١) معاوية بن أبي سفيان، من الجزيرة العربية إلى الإمبراطورية، (ص ١٦٧).

الخاتمة

أختم هذه الدراسة بعرض أبرز النتائج والتوصيات، وفق الآتي:

أولًا: النتائج:

١. انشغل الاستشراق الغربي بالتراث العربي الإسلامي، بين من تناولَه بعداءٍ وتحامل، ومن التزم منهجًا علميًا منصفًا، مع أن هؤلاء قلةٌ قليلة مقابل الكثرة المتحاملة والمعادية لكل ما يتعلق بالإسلام والمسلمين.

٢. قدّم هامفريز نقدًا حادًا لسياسة معاوية، متهمًا إياه بازدراء الدين، وشكك في صدق إسلامه، وعدَّه ذا دوافع سياسية أكثر منها قناعة دينية، دون الاعتماد على روايات موثوقة.

٣. سيطرت على هامفريز الانتقائية في قراءة التاريخ الإسلامي وعدم مراعاة السياق الزمني وتعدد الروايات، حيث رأى أن التاريخ الإسلامي صراع حق وباطل، وأن الأنساب والرموز استُخدمت لتبرير الصراع على السلطة.

٤. أسقط هامفريز تصورات أيديولوجية معاصرة على معاوية، واعتبره خارج الشرعية، متجاهلًا مكانته كصحابي وخليفة، ووصف حكمه كانعطاف نحو نموذج إمبراطوري، متجاهلًا أبعاد السياسة الشرعية في شرعية الحكم.

٥. أنصف هامفريز معاوية في جانب الفتوحات، لكنه لم يخلُ من اللمز، كالتقليل من قدرته القتالية المباشرة، وتعامل معه وكأنه في محكمة متأخرة، متجاهلًا أصول النظر إلى الصحابة وفق سياقهم التاريخي.

٦. استخدم هامفريز لمزًا وإساءة مبطنة تجاه بعض الصحابة وأحداث السيرة، مع التقليل من شأن المسلمين وإنجازاتهم، إلا أنه امتنع عن الخوض المطوّل في الفتنة الكبرى، ربما لتجنب التكرار أو المزالق الجدلية.

٧. اتسم منهج هامفريز بالتكرار والتشكيك، والانحياز لروايات الخصوم، وإيراد قصص مشكوك فيها، وانتقى مصادره بعناية، مع اعتماد واضح على روايات ضعيفة، مثل البلاذري في الأنساب والطبري في التاريخ، لتقوية موقفه النقدي. ومع أن تاريخ الطبري لا يخلو من روايات تحتاج إلى مراجعة وتمحيص، لكن هذا لا يقلل من شأنه أو مكانته العلمية بين كتب التاريخ، وبالتالي لا يعذر هامفريز ولا غيره في الاتكاء على الروايات التاريخية المغلوطة أو المدسوسة، للخروج بنتائج خاطئة أو مغرضة.

٨. افتقر كتاب هامفريز للترابط البنائي، وقدم معلومات غير جديدة، مما جعله أقرب للرؤية الشخصية.، حيث اعتمد قراءة انتقائية للتاريخ، أغفلت السياق الزمني وتطور المفاهيم، وانحازت لروايات مذهبية.

ثانيًا: التوصيات:

١. توصي الباحثة المهتمين بالفكر الإسلامي والدراسات الاستشراقية؛ بأهمية دراسة ونقد كتابات المستشرقين التي تناولت الأشخاص والمواقف والأحداث التاريخية المتعددة في حياة المسلمين.

٢. توصي الباحثة بِعمل دراساتٍ نقديةٍ قصيرة لكتابات آحاد المستشرقين من خلال المواد التي تضمنتها دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية.

قائمة المصادر والمراجع

١. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم. الفتاوى الكبرى. (ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٧م).

٢. ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع. الطبقات الكبرى، تحقيق: محمد علي عمر. (ط١، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م).

٣. ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب. زاد المعاد في هدي خير العباد، مجموعة من المحققين. (ط٣، الرياض: دار عطاءات العلم، بيروت: دار ابن حزم، ١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م).

٤. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر. البداية والنهاية، تحقيق: عبد الله التركي. (ط١، القاهرة: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ١٤١٧هـ).

٥. آربري، لا. ج. المستشرقون البريطانيون. تعريب: محمد الدسوقي. (ط١، لندن: دار وليم كولينز للنشر، ١٩٤٦م).

٦. أركون، محمد ومكسيم رودنسون وآلان روسيون وبرنالدلويس وفرانسيسكو غابرييلي وكلود كاهين. الاستشراق بين دعاته ومعارضيه، ترجمة وإعداد: هاشم صالح. (ط٢، دار الساقي، بيروت، ٢٠٠٠م).

٧. البدوي، عبد الرحمن. موسوعة المستشرقين. (ط٢، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٩م).

٨. البدوي، محمد. المنهجية في البحوث والدراسات الأدبية. (ط١، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة تونس، ١٩٩٨م).

٩. البغدادي، عبد القاهر بن طاهر، (ط٢، بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٧٧م)

١٠. الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد. الصحاح = تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار. (ط٤، دار العلم، بيروت، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م).

١١. حربي، خالد. دور المستشرقين في موقف الغرب من الإسلام وحضارته. (مقال في المجلة العربية، العدد ٥٥٧، ١١/١٢/٢٠١٥م).

١٢. الديب، عبد العظيم محمود. المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي. (ط١، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الإسلامية، قطر، سلسلة كتاب الأمة، العدد ٢٧، ١٤١١هـ).

١٣. ديتريش، ألبرت. الدراسات العربية في ألمانيا. (ط٢، فيسبادن، ألمانيا: فرانز شتاينر للنشر، ١٩٦٧م).
١٤. الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان. سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرين. (ط٣، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥م).
١٥. الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد. المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان الداودي. (ط١، دار القلم، الدار الشامية–دمشق–بيروت، ١٤١٢هـ).
١٦. رشيد، عبد الخالق، مناهج التحليل اللغوي. (جامعة وهران– الجزائر، د.ت).
١٧. رضوان، عمر بن إبراهيم، آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره. (ط١، دار طيبة للنشر، الرياض).
١٨. زقزوق، محمد حمدي. الاستشراق الخلفية الفكرية للصراع الحضاري. (دار المعارف، مصر، د.ت).
١٩. الزيادي، محمد فتح الله. الاستشراق أهدافه ووسائله. (ط٣، سوريا، مؤسسة المعاصرة ومستقبل الثقافة).
٢٠. السامرائي، قاسم. الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية. (ط١، دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع، الرياض، ١٤٠٣هـ– ١٩٨٣م).
٢١. سمايلوفتش، أحمد. فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر. (ط١، القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٠م).
٢٢. الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل، تحقيق: محمد سيد، (ط٢).
٢٣. صليبا، جميل. المعجم الفلسفي، (دار الكتاب اللبناني – بيروت، ١٩٨٢م).
٢٤. الطاهر، علي جواد. منهج البحث الأدبي. (ط٣، مكتبة اللغة العربية– بغداد، ١٩٧٤).
٢٥. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. (ط٢، القاهر: دار المعارف، ١٩٦٧م).
٢٦. عباس، إحسان، مقدمة تحقيق أنساب الأشراف، (بيروت: دار الفكر، ١٩٧٤).
٢٧. العقيقي، نجيب. المستشرقون. (ط٣، دار المعارف، مصر، ١٩٦٤م).
٢٨. عزوزي، حسن. مناهج المستشرقين البحثية في دراسة القرآن الكريم. (المكتبة الاستشراقية بدون بيانات، الكتاب موجود في موقع المستودع الدعوي).

٢٩. غراب، أحمد عبد الحميد. المستشرقون والموضوعية. (مجلة الأزهر، الجزء العاشر، السنة ٦٢).

٣٠. القزويني، أحمد بن فارس بن زكريا. معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون. (ط١، دار الفكر، ١٩٧٩م).

٣١. محمد، عادل ماجد. الفهم الاستشراقي لتفسير القرآن الكريم. (رسالة ماجستير، جامعة الكوفة، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م).

٣٢. مجمع اللغة العربية. المعجم الفلسفي. (ط١، بيروت: عالم الكتب، ١٣٩٩هـ).

٣٣. ملكاوي، فتحي حسن. منهجية التكامل المعرفي: مقدِّمات في المنهجية الإسلامية. (ط١، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا- أمريكا، مكتب الأردن- عَمَّان، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م).

٣٤. النملة، علي بن إبراهيم. الالتفاف على الاستشراق محاولة التنصل من المصطلح. (مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، ١٤٢٨هـ_ ٢٠٠٧م).

٣٥. النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف. شرح النووي على صحيح مسلم.، (ط٢، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٣٩٢هـ).

٣٦. هامفريز، ر. ستيفن. معاوية بن أبي سفيان، من الجزيرة العربية إلى الإمبراطورية، تحقيق: هشام شامية. (المركز الأكاديمي للأبحاث، بيروت-لبنان، ط/٢٠٢٢م).

٣٧. واعد البيانات الأكاديمية: JSTOR وGoogle Scholar وResearchGate.